فاروق جويدة

بلاد السحر والخيال

دار غريب للطباعة والنشر
القاهرة

بلاد السحر والخيال

فاروق جويدة

بلاد السحر والخيال

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلي ت: ٣٥٤٢٠٧٩

المكتبة: ١ ش كامل صدقي الفجالة ت: ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقي الفجالة ت: ٥٩١٧٩٥٩

ليست مقدمة
ولكن ...

هذا الكتاب تجربة سفر غريبة ..

فليس هناك أصعب من أن يجد الإنسان نفسه بين جدران سفينة عجوز ثلاثة شهور كاملة .. والسفينة تراودها كل ليلة أحلام الغرق وتغرق قلوبنا معها .

وليس هناك أقسى على الإنسان من أن يجد نفسه فى سيارة عسكرية تتهادى فوق أجسام الموتى وكأنها فى نزهة بحرية .. وتلك مأساة الحروب التى لاتعرف الرحمة .

ورغم مرور سنوات على هذه الرحلة فمازلت أعيشها حتى الآن .
مازلت أشعر بدوار البحر كأننى أعيش على نفس السفينة العجوز .

ومازلت أرى تجربة الحرب الأهلية فى بيافرا كما عشتها ذات يوم فى غابات أفريقيا وعدت منها وقد كرهت الحروب كما لم أكره شيئا فى حياتى .

مازلت أرى طيف طارق بن زياد والسفينة تعبر بنا مضيق جبل طارق وأنا أبكى على أوطاننا وأمجادنا القديمة يوم أن كنا أمة عظيمة .

وتتوالى الصور أمامى :

فأشم عبير شعر طاغور فى ربوع الهند وعلى قمم جبالها .. وألمح تاج محل إسطورة عشق لاتموت ..

أشياء كثيرة رأيتها ولم أستطع أن أنساها .. وتمنيت عزيزى القارىء أن تراها معى .. ولذلك كان هذا الكتاب ..

المهم ..

إذا كانت هناك أشياء لاتتكرر فى حياة الإنسان ولاينبغى أن تتكرر - ومنها بطبيعة الحال الموت .. والحياة .. وربما الزواج فأن أقول: إن تجربة هذا الكتاب شىء لن يتكرر فى حياتى مرة أخرى . فلم تكن هذه الرحلة تجربة سفر بقدر ما كانت تجربة موت .. وإذا كنت أحب أن أسافر؛ فأنا بالتأكيد لا أحب أن أموت .

فاروق جويدة

التجربة الأولى

السفر .. ذلك المجهول

كانت المرة الأولى التى أترك فيها تراب مصر ، وأقسى الأشياء بالنسبة لنا كشعب أن نترك شيئاً حبيبا إلى قلوبنا فما بالك إذا كان هذا الشىء هو مصر ذاتها .

والتجربة الأولى دائماً لها تأثير خاص فى حياة الإنسان . كثيراً ما نتحدث عن الحب الأول ، والأمل الأول . وتتساقط أوراق العمر منا ورقة بعد ورقة حتى لايبقى بين أيدينا سوى وريقات صغيرة نداعبها ونصبر أنفسنا ببقايا رحيقها فترانا نتذكر دائماً حبنا الأول .. وعمرنا الأول . ونتذكر أكثر جرحنا الأول .. ولانستطيع أن نعيد شيئاً من هذا كله !

كنت قد تخرجت فى الجامعة .. وبالتحديد من كلية الآداب والتحقت بالعمل فى الأهرام ويوم أن وجدت نفسى خارج أسوار الجامعة أواجه الحياة وحدى شعرت بألم شديد يختلط أحياناً بشىء من السعادة . الجامعة مكان عزيز . والحياة العملية أمل تغلفه سحابات كثيرة . وفى أعماقى مازلت أعانى مشكلة ارتباطى بالأشياء؛ فأنا لا أمزق أوراقاً قديمة كتبتها وكثيراً ما أجدها أمامى أكواما أكواما وأشعر أن الأوراق تمثل حياة الكاتب . ونحن لانستطيع أن نتخلص من أنفسنا حتى ولو أصبحت عبئا ثقيلا علينا . والأقلام القديمة أفضل عندى من الأقلام الجديدة؛ لأن القديم أعطانى شيئاً . ومنحنى خلاصة عمره وعبير أيامه . ولاخير فيمن ينسى القديم فى فرحة الجديد .

علمت أننى سوف أسافر فى جولة إلى غرب أفريقيا - هكذا أخبرونى فى الجريدة وشعرت بخوف شديد .. كنت قد تجاوزت العشرين بسنوات أربع . وتجربتى فى الحياة لم تزل صغيرة كالبراعم التى تنتظر من الحياة الدفء والرعاية؛ لكى تنشر عطرها وتنثر عبيرها .

وبدأت أستعد للسفر .. ودخلت فى دوامة الإجراءات الطويلة .. جواز السفر وشهادة التطعيم وتحويل النقد الأجنبى . وكان الحصول على تأشيرة الخروج فى عام ٦٩ يعتبر إحدى المعجزات واشتريت حقيبة صغيرة وكانت الأسعار لم تعرف بعد الأرقام الفلكية التى نسمع عنها ونراها الآن فى محلاتنا التجارية .

ومع صباح يوم ٨ من مارس من عام ٦٩ أخذت القطار إلى الإسكندرية ..

وبينما كانت عجلات القطار تسرع خلف بعضها البعض كأنها فى سباق . كانت صور الحياة تنتقل أمامى بسرعة . والقطار يحتل فى قلوبنا دائماً مكانة خاصة . ربما يذكرنا صوته القادم من بعيد بأشياء كنا أودعناها قلوبنا وأحطناها بأسوار من النسيان . ولكن القطار سرعان ما يجعلنا نعود ونتذكر ونشعر أن الزمن يعيد نفسه ولكن تحت عجلات قطار !!!

ومن أجمل المناظر التى يمكن أن تشاهدها تلك المساحة الخضراء التى تلقى وشاحها المنقوش المزركش على جانبى الطريق بين القاهرة والإسكندرية .

وحملت حقائبى واتجهت إلى ميناء الإسكندرية واحترت بين بوابات الميناء وسألت سائق التاكسى . هل تعرف باب الدخول ، أجاب فى سخرية : الأبواب ياسيدى كثيرة كثيرة ولذلك ترانا دائما نتوه !

وسألت عسكرى المرور : أين باب محطة الركاب . فسألنى عن اسم السفينة فقلت له اسمها «دلال» فأشار إلى بوابة ضخمة اندفعت منها السيارة بينما كانت أصوات السفن تنطلق فى سماء المدينة والشمس بلونها الذهبى تلقى رأسها بعد رحلة عناء طويلة على الأمواج الزرقاء فى عناق طويل .

فى أحضان سفينة عجوز !

قضيت ليلة كاملة وأنا نائم فى السفينة فى ميناء الإسكندرية ، وفى كابينة صغيرة قضيت ليلتى والأمواج تتزاحم أسفل السفينة وكأنها فتاة حسناء يطاردها جماعة من الشباب العابث .

لم أنم فى هذه الليلة . ومن العادات التى لا أحبها فى نفسى أننى لا أنام عندما يتغير مكان نومى . وذلك يدخل فى مشكلة الارتباط بالأشياء والأماكن .

وفى الساعة السادسة من صباح يوم ٩ من مارس من عام ٦٩ شعرت أن السفينة تتحرك وبدأت خطواتها تتسع رويدا رويدا . وخرجت على ظهر السفينة . وبدأت ملامح الإسكندرية تختفى من أمامى شيئاً فشيئا . وكانت هذه الخطوات تمثل الأمتار الأولى فى رحلة قطعت فيها

السفينة ١٥ ألف ميل بحرى عبر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى . وبدأت بميناء الإسكندرية . وانتهت بميناء دوالا فى الكاميرون وأخذت من عمر أيامى مائة يوم كاملة أو بتحديد أكثر ثلاثة شهور وعشرة أيام .. وبمعنى أكثر دقة أخذت منى ٢٤٠٠ ساعة ولا أبالغ إذا قلت: إننى عشت هذه الساعات دقيقة دقيقة . بين الأمل والرجاء .. والموت والحياة .. والخوف والمرض . انفعالات كثيرة ومتعددة تعبث بشاب كل تجربته فى الحياة لاتزيد كثيراً عن كتاب أو رواية . وأحلام أعرض من ساحة البحر الذى تتمايل السفينة بين أحضانه .

السفينة العجوز تندفع رغم سنى العمر وتزاحم الأمواج . وتهرب منها حينا وتحاول أن تسترضيها حينا آخر . لافرق بين البشر وبين السفينة . لقد تعلمنا مع الظلم أن نحنى رؤوسنا للعواطف . فمن ترى علم السفينة أن تخاف وتحنى رأسها للأمواج .. أتراها تعرف رأس الذئب الطائر وأسطورة الحكمة .

كان عمر السفينة أكثر من ٢٠ عاما . وهذا الرقم يعادل مائة عام فى حياة الإنسان ، ومعنى ذلك أن السفينة كانت تعيش أرذل سنوات عمرها . وتعانى من أمراض الشخوخة . فكثيرا ما كانت تصاب بالرعشة فتنتفض وتنتفض معها قلوبنا . وكثيرا ما كانت أقدامها تتعثر فوق الأمواج فتفقد القدرة على السير . المهم أن حالتها الصحية كانت

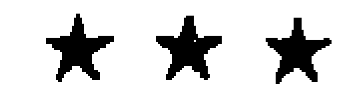
تثير العطف والشفقة ، وكنا فى أحيان كثيرة نتمنى لو استطعنا أن نأخذها «زقة» ولكننا كنا نكتفى بالإشفاق .

صنعت السفينة « دلال » فى إنجلترا فى عام ١٩٤٨ . بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بثلاثة أعوام : وكانت ملامح السفينة تحمل الوقار الإنجليزى وأيضاً تحمل كبرياءه رغم أعراض الشخوخة . وبعد عام ١٩٤٨ تنقلت السفينة بين عدد من الملاك لعلها لم تجد حظها مع واحد منهم . أو ربما لم تستطع أن تحتفظ بإخلاص مالك يبقى عليها . ولهذا انتقلت بين أحضان أكثر من رجل ، كان أولهم رجل نرويجى . ثم آخر دانمركى .. ثم ثالث يوغسلافى وكان آخر عشاقها تاجر لبنانى عجوز فضلت أن تقضى معه خريف أيامها ومازال الرجل قانعاً بنصيبه معها .

كانت حمولة السفينة ٣٦٠٠ طن . وهى حمولة ضئيلة للغاية لاتؤهلها لاحتمال عنف الموج ومداعباته الثقيلة . وكانت سرعتها « ١٠ عقد » فى الساعة أى حوالى ١٨ كيلو مترا تقريباً .

كنت سعيداً أن أرى البحر أمامى بهذا الاتساع . إننا نحب البحر؛ لأننا لانرى فيه حدوداً أو قيوداً . كان البحر هادئاً . وبينما كانت السفينة العجوز تندفع فى إصرار كانت أسراب النورس تحيط بنا . وبدأت تقترب من السفينة تعانق الموج أحياناً وتنطلق فى السماء أحياناً واختفت الإسكندرية تماماً .. واختفى كل شىء حولنا . ولم يبق إلا الموج .. والنورس .. وأشعة الشمس الراحلة .. وشعرت بخوف

شديد.. ودوار أشد .. لقد تعودت سنين طويلة أن أعيش غريباً وتعودت الإحساس بالغربة .. وليس الإحساس بالغربة أن تصبح بعيداً عن شيء محدد؛ لأننا كثيراً ما نصبح غرباء عن أنفسنا من كثرة ما تفعل بنا الأيام والظروف وعوامل التعرية حتى نكتشف يوماً أن كل شيء فينا قد تغير وأن ذلك الإنسان القديم الذى كان يعيش فى أعماقنا أصبح شيئاً لا وجود له .. وصار غريباً داخلنا . وبدأت أشعر بالملل .. لابد أن أرى ما حولى .. سوف أترك مياه البحر قليلا وأبحث عن رفاق الرحلة .. لأن الوقت مازال أمامنا طويل طويل .



فى كل ميناء زوجة !

الحياة فى البحر تختلف كثيراً عن حياتنا العادية . أكثر من هذا أن طباع البحارة وسلوكهم يختلف عن سلوك الإنسان العادى . أنت فى الحياة العادية تجد كل يوم شيئاً جديداً تفعله . قد تتعرف بصديق أو جار أو زميل وتواجهك مشاكل من نوعيات مختلفة ولك بيت وأسرة ولك فتاة تحبها . أو صديق تقضى معه وقتاً . مظاهر كثيرة مختلفة تعيشها كل يوم ولكن الحياة فى البحر تختلف عن ذلك كله . الليل فى البحر لايختلف كثيراً عن النهار إلا باختلاف اللونين الأزرق والأسود فترى البحر فى الصباح بلونه الأزرق مع ضوء الشمس ومع ظلام الليل تراه فى لونه الأسود .

وهناك فرق كبير بين أن تعيش فى مدينة كبيرة تستطيع أن

تتحرك فيها وبين أن تقضى معظم أيامك فى مساحة صغيرة . وما أرخص الحياة فى البحر؛ لأنك معرض للأخطار فى كل وقت . وفى بيتك تنام على سرير ثابت . والحياة فى البحر تخضع لسياسة الأمواج وتقلباتها .

ربما تنام فى المساء فوق السرير؛ لكى تجد نفسك فى الصباح تنام تحته أو فوق مائدة قريبة منه .

والبحارة لهم صفات كثيرة تختلف عن صفاتنا . أكثر ما يشد اهتمامهم أنواع السجار الجيدة يقتلون بها الوقت . وأحدث الأسطوانات والأغانى يحاربون بها الملل ، وصور النساء العاريات مبعثرة فوق الجدران . والبحار يعيش حياته من أجل يومه فقط؛ لأن غده مرتبط بأشياء كثيرة أبسطها موجة عالية أو عاصفة مجنونة ينتهى معها كل شىء .

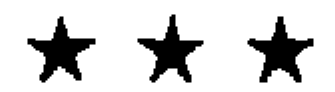
ونحن فى حياتنا العادية نقرأ الصحف ونموت غيظاً من المواصلات والتليفونات ومسلسلات التليفزيون ولكن البحار قليلا ما يتابع الأحداث لأنها لاتعنيه كثيراً .. إنه يملك هذا البحر الواسع . ولاتعنيه السياسة كثيراً فقد ينقذ من الموت عدوا له .. وقد يفتح عينيه ليجد نفسه فى سفينة عدو آخر أنقذه من موت محقق . وعندما تصبح الأمور نهاية عمر وانتهاء حياة تتحول المقاييس العادية للأشياء وتتغير أشكالها وتتجاوز ذاتية الأفراد وأنانيتهم .

كانت السفينة تحتوى على جنسيات كثيرة من البحارة . المصرى والسورى ، واللبنانى ، والهندى ، والبولندى . تختلف طباعهم فى بعض الأشياء ولكنهم جميعاً متفقون على أن الحياة ليلة عابرة . تجدهم أحياناً أتقى خلق الله وأكثرهم إيماناً . وفى أحيان أخرى يخيل إليك أنهم أكثر خلق الله جنوناً .. وأجمل مافيهم الصبر والأمل .. كان من أبرز شخصيات السفينة « باتشويش » البحارة عم عبدالله ، كان سوريا ويعمل فى البحر منذ أن كان فى الثامنة من عمره أى منذ أكثر من أربعين عاما وهو يعيش فى البحر . ويقول عم عبدالله : إننى أتحمل الكثير من أجل أولادى . عندى ستة أبناء جميعهم فى المدارس . وأرسل لهم ٢٠٠ دولار شهرياً لقد قاسيت فى حياتى كثيراً ولذلك أحاول أن أوفر لأبنائى الحياة الطيبة؛ حتى لايقاسوا ماقاسيت. لن أرى فى حياتى متاعب أكثر مما رأيت ولكنى أريد أن أراهم أسعد حظا منى ولذلك تحملت الحياة فى البحر رغم قسوته . والشىء الذى يسعدنى أن أبنائى متفوقون فى دراستهم .

وتذكرت وأنا أتحدث مع عم « عبدالله » قول أحد الفلاسفة عندما سألوه يوما : لماذا لم تنجب أطفالا .. فقال « حتى لايوجد فى الأرض إنسان أحبه أكثر من نفسى » .

كان الباتشويش عبدالله يمثل فى نظر العاملين فى السفينة الأب

المكافح والرجل الصبور ، وكانت هوايته المفضلة أن يلعب الطاولة فى أوقات الفراغ أو يمسك بفرشاة البوية ويبدأ رحلته اليومية لطلاء السفينة حتى لاتصدأ .



وتعددت النماذج ..

كان على ظهر السفينة من جاء لكى يعول بيتا أو يسعد أبناء رغم قسوة الظروف والحياة عليه . وهناك أيضاً من جاء هارباً من أحزان يعانيها وقصة حب جاء هاربا منها؛ كي يطوى أشجانها وملامحها فوق مياه البحر الزرقاء . « ميشيل » شاب لبنانى بدأت تجاعيد الزمن تزحف على وجهه وتترك آثارها . وقلت له يوماً مداعبا : الزمن يزحف على وجهك ياميشيل .. أجاب بابتسامة حزينة .. آه من الزمن .. ضاعت حياتى فى هذا البحر .. أنفقت فى السنوات الأربع الأخيرة من عمرى ٢٠ ألف دولار .. تعبت من حياة اللهو بين الموانى والملاهى والنساء أريد أن أجد عملا على الشاطىء ورفيقة عمر تقاسمنى أيامى فرحاً وأشجاناً . لكننى ضيعت حياتى بين هذه الصور ، وأشار إلى الصور العارية التى تتناثر على أحد الجدران ؟

كان ميشيل نوعاً طموحاً من الناس . تخرج فى كلية الهندسة . لم يستطع أن يعمل فى ظل وظيفة تكبله بقيودها .. وأحب زميلته فى الجامعة ولكنها تزوجت بعد التخرج من غيره . ولم يجد مكانا ينسى فيه أحزانه ويخفف فيه شيئاً من خيبة أمله أن يعمل مهندساً على سفينة . وقضى أجمل سنوات عمره حائراً بين بلدان الأرض شرقاً وغرباً . ولكنه لم يجد حتى الآن الشيء الذي يبحث عنه !!

وبجوار كابينة ميشيل كان « جعفر » الشاب السودانى الأسمر . تزوج ٤ مرات . فشل فيها جميعاً . ويقول : أنا لا أصلح لأن أكون زوجاً لأن الزواج قيد وتبعية . وأنا لا أحب ذلك ، إننى أعشق البحر . وقضيت فيه الآن أكثر من ١٣ عاماً وأنا سعيد جداً بحياتى فيه ، كل الذى أريد من الحياة أن أعيش كل لحظة من لحظات عمرى أتمتع بها بعيداً عن القيود والتقاليد والدين والأخلاق ، هذه جميعها قيود ننسج خيوطها بأيدينا ونشنق بها أنفسنا ؟ !

ويضيف « جعفر » أنا لا أعرف شيئاً أكثر من عملى فوق السفينة ، وصديقاتى فى الموانى ولايهمنى فى الدنيا شيء أكثر من ذلك أجمع مرتبى كله وفى أول ميناء تقف فيه السفينة أرجع للسفينة وقد أنفقت كل ما كان معى . لماذا نجمع الأموال ؟ وماهى قيمتها عندما نموت ؟ إن الله خلقنا لكى نتمتع ونعيش والمال وسيلة لتحقيق

السعادة.. هل يستطيع الإنسان أن ينفق دولارا واحدا وهو ينام فى قبره؟

ويضحك جعفر وهو يقول : أنا لا أعرف شيئاً فى السياسة إطلاقاً. لم أسمع نشرة الأخبار منذ عامين تقريباً . ولا أعرف أسماء رؤساء الدول . ولايهمنى أن أعرف ذلك . أحب كثيراً أغانى سيد درويش .. كم كان رائعاً هذا الرجل .

كان فى السفينة أكثر من ٢٥ جهاز تسجيل أرخص الأشياء السجائر .. وأغلاها الماء .. وحول صوت أم كلثوم يتجمع البحارة كل مساء . خيط واحد يربط بينهم جميعاً . الإحساس بالغربة رغم كل مظاهر السعادة التى تبدو على وجوههم أحياناً . السودانى . واللبنانى والمصرى والسورى ، يجتمعون أمام صوت أم كلثوم وكأنهم فى محراب صلاة . وهكذا الفن الراقى والعطاء الخلاق دائماً له عشاقه ومريدوه .. ورغم التعود الطويل على الغربة والبعد عن الأهل والأصدقاء إلا أن «عم حسن » السفرجى كان دائم الحديث عن أمه التى لم يرها منذ عام . والشيء الذى كان يحزنه دائماً خوفه من أن تكون أمه قد ماتت دون أن يراها .

وتنتهى أغنيات أم كلثوم .. وتسكت أجهزة التسجيل وينطلق الجميع كل إلى مكان نومه . هناك من ينام وهناك من يأخذ مقعداً فى جانب من جوانب السفينة ينظر للقمر وهو يعكس أشعته على الأمواج

.. ربما يتذكر شيئاً .. ربما يحلم بشيء .. وهناك من يدخل لكى يكتب خطابا لحبيبة هجرت . أو صديق شغلته الحياة أو أم تنتظر خطابا . نماذج كثيرة ومشاعر متباينة يجمع بينها خيط واحد «الإحساس بالغربة » والمشاعر المرهفة . والخوف من النهاية يولد فى أعماقنا الإحساس المرهف بكل شيد .

فى جانب آخر كان « علاء » الضابط المصرى الشاب الذى لم يكن قد تجاوز من العمر ٢٣ عاما . كان أصغر ضباط السفينة سناً . والده موظف كبير فى مصر . كانت له قصة حب استمرت ٨ سنوات ، يوم أن تخرج فى الكلية البحرية وذهب لكى يطلب يد حبيبته رفض والدها قائلا « أريد زوجاً يعيش مع ابنتى » .

وهكذا انتهت قصتها وفصلت بينهما أمواج البحر الصاخبة . ويقول «علاء»: لم أحزن لأنها رفضتنى لأن كل فتاة تريد الاستقرار وتبحث عنه . وهذا مالم أكن أستطيع أن أحققه لها ، رغم كل هذا لا أخفيك أننى أتذكرها كثيراً . وأعتقد أننى مازلت أحبها . وكثيراً ما أسأل نفسى : وماذا بعد هذا الحب وخاصة أنها تزوجت منذ عامين . الوحدة تجعل الإنسان يهرب إلى ماضيه وخاصة إذا لم يكن فى الحاضر ماهو أفضل .

كان قائد السفينة متزوجاً من سيدة أجنبية . وكانت ترافقه فى الرحلة وكان رأيه أن الحياة الزوجية للبحار يجب أن تبدأ مع حياته فى

البحر لأن الزوجة تعرف ظروف زوجها من البداية ويمكن بذلك أن تستمر الحياة . وبجانب هذا فإن البعد بعض الوقت بين الزوجين يجدد العواطف بينهما وخاصة أن التعود الطويل بدون تجديد يجعل الملل والرتابة يسيطران على الحياة الزوجية . ولكننا لايمكن أن نتجاهل مشكلة تربية الأولاد لأن اختفاء الأب وقتاً طويلاً يجعل مستوى تربية الأبناء سيئا للغاية .

ويضيف قائد السفينة : الشيء الوحيد الذى يجعل الناس تفضل العمل فى البحر هو ارتفاع مستوى الدخل فيه .

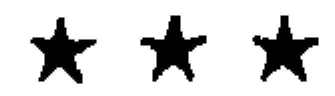
وتقول زوجته : أنا أفضل السفر مع زوجى فى رحلاته لأن السفر أفضل رغم متاعبه من أن أعيش وحدى أنتظر الزوج المسافر كى يعود يوماً أو يومين كل فترة طويلة . أما الزواج من رجل البحر فهو مشكلة. ولهذا لابد أن يكون هناك فهم لطبيعة وظروف عمل الزوج .

ولكن كبير الضباط فى السفينة يتدخل فى الحديث ويقول : هناك فكرة خاطئة تقول : إن للبحار فى كل ميناء زوجة . وهذا خطأ كبير لأن كثيراً من البحارة على مستوى أخلاقى كبير . وإذا كان هناك انحراف فى السلوك فإن ذلك يرجع إلى طبيعة ظروف الحياة فى البحر لأن البحار يحاول تعويض الحياة القاسية التى يعيشها فى البحر ولذلك يريد أن يحقق أكبر قدر من الإحساس بالسعادة والمتعة فى أقل وقت ممكن ..

والزواج والبحر لايتفقان إلا فى ظروف خاصة ونادرة جداً بحيث تستطيع الزوجة أن تحل مكان زوجها فى البيت وفى تربية الأبناء .

ويضيف كبير الضباط : العمل فى البحر يجذب الإنسان فى مرحلة الشباب فقط . حيث المغامرات والسفر والصديقات . ولكن الإنسان عندما تتقدم به السن يشعر أنه لابديل أمامه عن الاستقرار والزوجة والأبناء والعش الهادئ .

ويضحك الجميع عندما يدخل عم « عبدالله » باتشويش عمال السفينة لكى يحسم النقاش بأسلوبه الساخر . لابد أن يتزوج الإنسان سواء كان فى البحر أو فى البر . فهذه سنة الحياة ، ولكن بشرط أن يعيش مع زوجته ٥ سنوات على الأقل قبل أن يعود إلى البحر حتى تستقر حياتهما ويعرف من خلال العشرة إخلاص زوجته فيتعلم كيف يثق فيها ؟ وينبغى ألا يتركها قبل أن يترك معها نصف « دستة » من الأطفال يملأون حياتها أثناء غيابه .



السفينة تغرق !!

مضت الأيام الأولى فى حديث متصل مع رفاق الرحلة من البحارة ولم يكن هناك غيرهم ولايمكن أن يكون غير ذلك على سفينة تجارية . مرة نتحدث عن الزواج وأخرى عن الحب . ومرة أخرى نجلس فى الصالون نشاهد التليفزيون . فنرى تليفزيون مالطة . ثم تونس ثم الجزائر .. وقد نجلس حول الطاولة وتدور المعارك .

وبدأ الوقت يمضى بطيئاً بعد اليوم الثامن فى الرحلة .. أصبحت الأحاديث معادة ومكررة وليس فيها جديدا . وبدأ الملل يتسرب إلى النفوس ودوار البحر يعبث بنا بين الحين والآخر . أمواج البحر أمام ساحل الجزائر تصل إلى ارتفاعات مذهلة « والنوات » كما يسميها البحارة تجدد هجومها كل ليلة بحرا وجواً . نشرة الأحوال الجوية تؤكد أن حالة

الجو ليست على مايرام . وفى كل يوم كنت أذهب إلى ضباط اللاسلكى فى أعلى السفينة كى أسأله عن تنبؤات الأرصاد .. وبدأت أعرف ارتفاع الأمواج . وسرعة الرياح واحتمالات الجو والنوات ، تساؤلات تعودت كل يوم أن أطرحها على ضباط اللاسلكى . ولكن كذبت الأرصاد ولو صدقت.

السفينة تتعثر خطاها فوق أمواج ساحل الجزائر وهو معروف بتقلباته وأمواجه العاتية وسألت قائد السفينة : كم المسافة بيننا وبين الساحل ؟ فقال : حوالى ٥٠ ميلا ، إلا أن نشرة الأحوال الجوية تشير إلى أن الموج سيرتفع الليلة .

الأمواج تتزاحم حولنا وتلقى بالسفينة بقسوة شديدة . وأشعر أن السفينة ترتفع إلى أعلى بارتفاع عمارة ضخمة .. ثم تهبط كأنها تهوى إلى بئر عميق . وكانت السفينة تتحرك ببطء حتى يخيل إليك أنها واقفة فى مكانها لاتكاد تتقدم للأمام خطوة حتى تعيدها الأمواج إلى ما كانت عليه .

استعدادات مريبة فى السفينة ، أجهزة جديدة أراها لأول مرة وحجرة كانت دائماً مغلقة بجوار أجهزة اللاسلكى وجدتها مفتوحة لأول مرة ، وسألت ضابط اللاسلكى : ماذا هناك؟ أجابنى مرتبكا : أريد أن أجرب جهاز لاسلكى الاستغاثة لأن السفينة فى خطر . بدأت الأمواج

تعصف بالسفينة وتدخل من نوافذ الكبائن وأصوات الموج تثير الرعب فى قلوبنا كأنها وحش كاسر . والليل يخيم على كل شيء بعد أن غربت الشمس وغرب قلبى معها . إن الإنسان يكون فى أرقى مراحل صفائه عندما يشعر بقرب النهاية ..

وبدأت أتخيل أشياء كثيرة .. لعلنى بعد لحظات سأكون غذاء شهياً لأسماك القرش التى تحيط بالسفينة . على كل حال ليس السمك وحده هو الذى يأكل الإنسان .. إن الإنسان أيضاً يأكل لحم أخيه وإن اختلفت مظاهر ذلك . إننى أتصور أن السمك يأكل كل شيء فى الإنسان ويترك قلبه لأن القلب ربما يكون أفضل مافى الإنسان .. وقد يكون أيضاً أسوأ مافيه .

الليل يخيم على البحر الثائر ، ومظلة كثيبة من السحب تغلف القبة الزرقاء . وأمر قائد السفينة البحارة بإنزال قوارب النجاة وأخذ كل واحد منا يرتدى جهاز الإنقاذ وبدأنا نتدرب على النزول إلى القوارب؛ لكى يعرف كل واحد منا القارب الذى سيكون فيه . واقتربت من جعفر الشاب السوادنى وقلت له : لعلك تذكر حكاياتك عن إنقاذ الغرقى .. لقد قلت لى يوماً أنك أنقذت ٤٩ شخصاً فقال : وستكون أنت رقم ٥٠ بأذن الله .. وتصورت أنه جاد فى كلامه فلم أكن أعرف السباحة .

وبدأت السفينة تتمايل .. وكل واحد من البحارة أخذ مكانه فى قارب صغير استعدادا للنزول فى حالة غرقها .. والأمواج من حولنا

تعلو .. وتعلو .. وليس أمامنا شيء غير ظلام قاتم ثقيل . وأخذت أحدق من بعيد على أرى ضوءاً خافتاً لسفينة بعيدة تعيد شيئاً من الاطمئنان إلى نفسي .

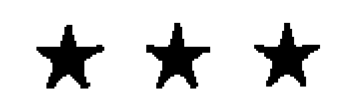
وطال انتظارنا لعودة الهدوء إلى البحر الثائر ونحن نتابع نهايتنا .. ما أسوأ أن تنتظر نهاية مؤلمة . وبعد ثلاث ساعات كاملة من المعارك بين السفينة والموج قررت أن أعود إلى الكابينة لأن الموت قدر ليس لنا فيه خيار .. وإذا كان قدرنا أن نموت فلن يختلف الأمر كثيراً بين أن نموت ونحن في قارب النجاة أو أن نموت على سرير في سفينة أو أن نموت في بيوتنا .. النهاية واحدة وإن كنت أعتقد أن الموت في البحر أفضل بكثير من الموت على الأرض؛ لأن الماء أجمل من التراب ولأن الأسماك أجمل كثيراً من الحشرات .

وأخذت قرصين من الحبوب المنومة وألقيت رأسي على السرير ورأسي تدور بسرعة تفوق سرعة الأمواج المتكالبة على السفينة المسكينة ولم أستطع أن أغمض عيني .

وعند منتصف الليل انطلق صوت صراخ واستغاثة وتصورت أن السفينة تغرق بالفعل وخرجت مسرعاً . ولكنني فوجئت بأحد البحارة وهو يصيح ثعبان .. ثعبان .. واندفع البحارة إلى أحدى الكبائن ومعهم العصي ودارت معركة أخرى لم أحاول أن أرى منها شيئاً غير نهايتها عندما خرج البحارة .. وبين أيديهم ثعبان ضخم قد قتلوه .

ورأيت جعفر يقترب منى ويقول : « بحثت عنك كثيراً عندما كانت السفينة تغرق فلم أجدك ، أين اختفيت لقد كنت صادقاً عندما قلت لك أننى سأنقذك ، لعلك لم تصدقنى . ولكن الحمد لله هدأ البحر وانتهت الأزمة . فقلت له ضاحكاً : أنا حزين لشىء واحد .. أن السفينة لم تغرق؛ لكى تحقق أملك وهو أن يصل رصيد الذين أنقذتهم إلى ٥٠ شخصاً !

وانتهت مأساة الثعبان .. وما أكثر الثعابين فى السفن التجارية وخاصة التى تعمل على خطوط أفريقيا لأنها تختفى فى عنابر البضائع وتعيش فيها وتتمتع بخيراتها من المأكولات والأطعمة والحرارة المناسبة والهدوء التام . وبدأ البحر يهدأ وتهدأ معه أنفاسنا وتعود قلوبنا إلى أماكنها . وكنا قد تركنا ساحل الجزائر وبدأنا نقترب من مناطق الهدوء .



وأخيراً .. نقترب من الأرض

على قدر إحساسنا بجمال البحر كان إحساسنا بالملل بعد أن قضينا الآن ١٧ يوما على ظهر السفينة لانرى شيئا غير المياه الزرقاء وبعض الشواطىء من بعيد والملل الثقيل يتربع فوق أنفاسنا .

وبدأنا نقترب من الشاطىء البعيد .. ولم يكن شاطئاً واحدا ولكننى فوجئت بضفتى البحر الواسع العملاق تقتربان رويدا رويدا وتصورت أننا نقترب من أول ميناء سوف تتوقف فيه السفينة ، وذهبت مسرعا إلى الضابط الذى يقود السفينة .. وسألته : أين نحن الآن ؟ فقال : فى مضيق جبل طارق .

كانت أسرب النورس قد بدأت تظهر على السفينة وهى تختفى عادة كلما ارتفعت أمواج البحر ، ولذلك لم نرها طوال رحيلنا أمام

ساحل الجزائر .. وكان البحر هادئا كأنه بحيرة صغيرة والسفينة تعبر فيه مثل طائر صغير .. واقتربت الضفتان .. نحن الآن فى جبل طارق . البحر الثائر هدأت أمواجه وصار بحيرة جميلة تتناثر على شاطئيها الأضواء فتنعكس على ساحة المياه الممتدة فى عناق جميل .

وعدت بذاكرتى إلى الوراء : من هنا عبر طارق فى يوم من الأيام ونشر الإسلام فوق هذه الربوع هنا عاش العرب أكثر من ٧٠٠ عام . وتركوا آثارا . وعلموا العالم معنى الحضارة . وهنا أيضاً تغنى ابن زيدون بحب ولادة .. لاتستطيع أن تنتزع مشاعرك من محفل التاريخ وأنت تعبر مضيق جبل طارق . ولاتستطيع أيضاً أن تنزع مشاعر الحزن التى تنتابك . ما كنا عليه وما نحن الآن فيه . تشعر كأنك تزور مكانا مقدسا له رهبته وقدسيته . لنا فى هذا المكان تاريخ وحضارة ، على أمواجه ارتفعت كلمة الله .. إن الإيمان يصنع الكثير لأنه أكبر المعجزات. ويوم يفقد الإنسان إيمانه فإنه يفقد قدرته على التغيير .

كانت الأضواء على جانبى المضيق مثل حبات اللؤلؤ التى تتناثر فتنعكس أضواؤها على صفحة المياه .

يابحر ... أنا واحد من أبناء من عانقهم أمواجك يوما حبا وترحيبا ، وأكبرت فيهم إصرار الإنسان وعطاءه ، وكيف أن الإيمان يجعل منه مخلوقا لايخشى فى الأرض شيئا غير خالقه ، أنا واحد من

أبنائهم يمزقني ضياعنا .. وتقهرني أحزاننا .. فلم نعد نملك شيئا غير الأحزان .. وبقايا من دموع .

وتذكرت ابن زيدون .. وحكايته مع ولادة عندما كتب لها يوما :

أو تحفظون عهودا لا أضيعها　　إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

بما التعلل لا أهل ولا وطن　　ولا نديم ولا كأس ولاسكن

وعندما قال لها بعد فرقاهما :

أيوحشني الزمان وأنت أنسى　　ويظلم لى النهار وأنت شمسى

وأغرس في محبتك الأماني　　فأجنى الموت من ثمرات غرسى

وبينما كانت أضواء جبل طارق تختفى من أمامنا والسفينة تتهادى فى مدخل المحيط الأطلنطى انسابت الدموع من عينى ربما لأننى لن أرى هذا المكان مرة أخرى .. وربما لأننى بكيت فيه جزءا عزيزا من تاريخنا .. وربما لأننى شممت عطر ولادة وعبير ابن زيدون ينتشر فى كل مكان فى ربوع الأندلس ولقد أحببت ولادة بقدر حبى لابن زيدون .

وبدأت السفينة تستعد .. اقترب أول ميناء سوف نضع أقدامنا فيه .. هناك من يحلق ذقنه . ومن يكتب خطابا ومن يكوى ملابسه . ووقفت أتابع من بعيد فى شوق جارف اقترب السفينة من الأرض بعد أيام طويلة قضيتها على الموج لا أحلم بشيء غير أن تستقر قدماى على الأرض .

ووضعنا أقدامنا فى ميناء « بورت أتين » فى موريتانيا بعد ١٨ يوما قضيناها فى البحر لا نرى فيها شيئاً غير الأمواج الزرقاء ونسمات البحر الهادئة والتى كثيرا ما كانت تثور ويتغير معها كل شىء ..

الزواج على الطريقة الموريتانية !

أكثر ما تحس به عندما تضع قدماك على تراب موريتانيا أنك فى ضيافة شعب طيب فيه طهارة الصحراء وأصالتها . وأيضاً يعانى مشاكلها .

فالشعب الموريتانى شعب موارده محدودة ، أهمها الرعى وصيد الأسماك . وفى موريتانيا توجد أغنى مناجم النحاس فى العالم . وفيها أيضاً أغنى شواطىء العالم بالأسماك . ولذلك تحيط بسواحل موريتانيا أكثر من ٣٠٠ سفينة صيد طوال أيام السنة حيث تجمع أكثر من ألف طن من الأسماك يوميا . ويعمل ٧٥٪ من سكان موريتانيا فى الرعى على امتداد الصحراء على شاطىء المحيط .

ويقولون : إن موريتانيا تعتبر الدولة الوحيدة فى العالم التى يدين جميع سكانها بالإسلام كما أنها تعتبر من أغلى دول العالم فى الأسعار .

وينقسم الشعب الموريتانى إلى ٣ فئات اجتماعية .. هناك من يطلقون على أنفسهم « الزوايا » وهم الزاهدون في الحياة العابدون لله سبحانه وتعالى . ويمتازون بتمسكهم بأحكام الدين ويزورهم الناس للتبرك بهم . وهم أهل العلم فى موريتانيا ولهم تقدير خاص كما أنهم يقومون بأداء شعائر الدين كالصلاة والزواج والدعوة والإرشاد بين الناس .

أما الطائفة الثانية من المواطنين فى موريتانيا فيطلقون على أنفسهم « أهل السلاح » ويمتازون بالشجاعة .. ويأتى فى نهاية القائمة الطائفة الثالثة وهم « العوام » وهم الذين يرعون الإبل فى الصحراء والغريب أن نسبة الأمية فى موريتانيا لا تزيد على ٢٠ ٪ لأن الناس يتعلمون فى الكتاتيب التى تنتشر فى كل مكان .

وتسمع حكايات كثيرة عن الناس فى موريتانيا .. فقد شهدت حروبا واسعة بين الزوايا وأهل السلاح .. ويقال : إن السبب فى ذلك كان سببا غريبا . فقد قام واحد من أهل السلاح يوما وصلى الظهر ركعتين . واحتج زميله الذى كان يصلى معه وكان من الزوايا ، لأن ذلك مخالف

للشريعة الإسلامية وتحول الحوار من الكلمات إلى السيوف ودارت الحرب بين الزوايا وأهل السلاح بسبب ذلك حتى تدخل الفرنسيون الذين كانوا يحتلون موريتانيا وقاموا بنفى الشيخ « حماه الله » وكان زعيما للزوايا ، ومات الرجل غريبا عن وطنه ومازال الموريتانيون يعتزون بكراماته ويشيدون بآثاره التى تركها فى قلوب مريديه وأتباعه .

من أبرز الملامح الأساسية فى حياة الشعب الموريتانى انتشار الطرق الصوفية . ويبلغ عدد الطرق الصوفية فى موريتانيا ١٠ طرق ينضم تحت لوائها ثلاثمائة شيخ . وأكثر الطرق انتشارا الطريقة الفاضلية ويمثلها ١٢٠ شيخا والتيجانية ويمثلها مائة شيخ والطريقة القادرية ويمثلها عشرون شيخا والشاذلية ويمثلها ١٠ شيوخ .

ولايختلف الأمر كثيراً بين مصر وموريتانيا بالنسبة للطرق الصوفية ، عندما يموت الشيخ يصبح أحد أبنائه وريثا شرعيا للطريقة وكل ما يجيء معها من خيرات . ولكل شيخ أتباعه ومريدوه الذين يدفعون له الرواتب بصفة دائمة كما يقومون برعايته . وكثيراً ما تقوم المعارك بين المشايخ بعضهم البعض وقليلا ما يكون الخلاف حول قضايا الدين وكثيرا ما يكون حول قضايا الدنيا .

وهناك طريقة أخرى تسمى الطريقة « المريدية » ترجع أصولها إلى الشيخ أحمد بن حبيب الله ومازال له أتباع فى غرب أفريقيا بصورة واسعة . ويعتقد أتباع الشيخ حبيب الله أن الفرنسيين أخذوا الشيخ

حبيب ووضعوه بين عدد من الأسود فى فرنسا عندما كان يقاوم الاستعمار الفرنسى الا أن الأسود سجدت أمامه عندما أدخلوه عليها ورفضت أن تعتدى عليه .

وتتعدد صور الحياة فى موريتانيا ...

فمازال الطلاق من المشاكل الرئيسية التى تواجه المجتمع الموريتانى . ويرجع ذلك إلى أن الزوجة ترفض الحياة مع زوجها إذا تزوج بامرأة أخرى وتفضل الطلاق ، ولهذا تتعدد حالات الطلاق ..

وفى موريتانيا تتزوج الفتاة وهى صغيرة . قد تتزوج وعمرها لايتجاوز ١٠ سنوات . واذا كانت العروس تعيش فى المدينة فإن والدتها ترسلها إلى البادية حيث تشرب اللبن وتأكل اللحوم لأن من أبرز مواصفات الجمال فى موريتانيا « المرأة السمينة » .

وبمجرد أن يتزوج الشاب فإنه ينضم إلى أحد الطرق الصوفية بعد أن يكون قد أكمل نصف دينه .

وعندما تبدأ الحياة الزوجية لايستطيع الزوج أن يعيش مع زوجته أكثر من أسبوع ويذهب بعد ذلك إلى أهله وتعود العروس إلى بيت أبيها. وبعد شهرين يلتقى العروس مع عروسه مرة أخرى فى بيت الزوجيه لعدة أيام يشترط أن يكون عددها زوجيا « يومان أو أربعة أو ستة » لأن الأرقام الفردية دليل شؤم وفراق .. وتستمر الحياة على هذا الوضع بحيث لاتزيد عن لقاءات عابرة بين الزوجين يفصل بينها عدد من الشهور .

زواج ولكن ..

وبعد عامين من الزواج يكون كل واحد من العروسين قد اعتاد الحياة مع الآخر . وتكون العروس قد كبرت لأنها تتزوج وهى طفلة . وهنا يستطيع الزوج أن يطلب من أهل زوجته أن يعيشا معا فى بيت الزوجية وتبدأ رحلة الزواج .

والزواج فى موريتانيا نشاط نسائى بحت فالرجل لا يتدخل فى مسائل الزواج ، فإذا رغب الشاب فى الزواج من فتاة فإنه يطلب ذلك من أمه التى تذهب إلى والدة العروس كى تستشيرها ، وتقوم الأم بعد ذلك بإعدادا الجهاز لابنتها . والسبب فى ذلك أن الحياء يمنع الرجل من التدخل فى مثل هذه الأمور .

ومن بين الشروط التى ينبغى توافرها فى العريس أن يكون

حافظا لأجزاء من القرآن الكريم ويعرف أحكام الدين . وهو يقف أمام المأذون فى امتحان صعب فى أمور الدين قبل أن يعقد القران ، ولذلك يتمتع المأذون بثقافة دينية واسعة .

ومن حقوق الزوجة على الزوج أن تطلب الطلاق إذا تزوج بامرأة أخرى . وتشترط عليه أن يطلق زوجته إذا كان متزوجا قبل أن يرتبط بها .

وعلى امتداد الأسبوع الأول من الزواج تلتقى أسرة العريس والعروس حول بيت العريس ويغنون طوال الليل والنهار وتدق الطبول فى كل أرجاء المدينة أو القرية ابتهاجا بالعرس السعيد ويستمر الغناء أسبوعا كاملا .

ومن عاداتهم فى موريتانيا فى الزواج أن الشاب إذا رغب فى الزواج من فتاة فإنه يعطى أمها خيطا رفيعا متعارفا عليه هناك لكى تربطه فى أسفل ساقها وهذه تمثل دبلة الخطوبة على الطريقة الموريتانية ومن حق الزوج أن يتغيب عن بيته ، وهو عادة يفعل ذلك لأن أعمال الرعى والصيد تحتاج إلى ذلك فى أحيان كثيرة ، ولكن الزوج لايستطيع أبدا أن يتغيب عن بيته فى الأعياد مهما كانت الأسباب.

وطوال السنوات الأولى من الزواج يكون الحياء ساترا فيما بين

الزوج وأهله من جانب وأهل زوجته من جانب آخر ، فإذا التقى بوالده فى الطريق فلابد أن يمضى بعيدا عنه حتى لا يراه حياء منه .

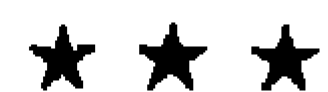
وتصبح الزوجة أما .. وتظهر مع الأبناء عادات أخرى جديدة ، إذا كان المولود ذكرا فإن الأم تصبغ وجهها باللون الأسود تجنبا للحسد . وإذا كانت المولودة أنثى فإنها تصبغ جزءا من وجهها باللون الأحمر .. والأولاد هم الأساس الأول لاستقرار الزوج والزوجة فى بيتهما بعد رحلة طويلة من الاختبارات والحسابات .



أزمة دبلوماسية بسبب قرد

وتسبب القرد فى أزمة دبلوماسية بين سفارتين فى موريتانينا !!
كادت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين أن تصل إلى صدام مؤكد .. لولا تدخل المسئولين فى موريتانيا لإنهاء الأزمة .. كان أحد سفراء الدول الأجنبية يربى قردا صغيرا فى بيته ، وكان بيت السفير يقع بجوار مبنى إحدى السفارات الأخرى .. وذات يوم تسلل القرد الصغير ودخل مبنى السفارة ومن إحدى النوافذ توجه القرد إلى حجرة السفير وأخذ منها بعض الأوراق المهمة .. وخرج بها .. وعندما عاد السفير إلى مكتبه اكتشف ضياع الأوراق ونادى سكرتيرته وسألها : هل أخذت الأوراق من فوق مكتبى فأجابت بالنفى .. وبينما كان السفير يتحدث إلى سكرتيرته كان القرد ينظر إليهما من بعيد وهو واقف على إحدى

الأشجار .. ولمح السفير الأوراق فى فم القرد وأسرع موظفو السفارة يطاردون القرد الذى فر هاربا . وبعد مطاردة مثيرة فى الشوارع وعلى أسطح المنازل عاد القرد إلى بيت صاحبه وهو يحمل الأوراق .. وكان السفير قد اتصل بزميله صاحب القرد وأخبره بالقصة .. وعاد صاحب القرد مسرعا إلى بيته .. وبعد محاولات استعطاف من السفير لقرده استطاع أن يعيد الأوراق وكان بعضها قد تمزق وبعضها الآخر مازال سليما .. وتأزم الموقف لأن الأوراق كانت على درجة من الأهمية .. ولم تنته الأزمة إلا بزيارة اعتذار من السفير صاحب القرد إلى سفارة الدولة الأجنبية التى يسكن بجوارها .. وكان عقاب القرد أن يحرمه صاحبه من حياة العز والرفاهية لكى يعود مرة أخرى لكى يعيش فوق الأشجار.



العشاء فى البادية

كانت الدعوة لاتقبل على الأقل من جانبى .. أن أتناول العشاء فى الصحراء مع أعراب البادية تحت الخيام والشعب الموريتانى شعب كريم للغاية .. فيه شهامة الصحراء وعطاؤها ورجولتها .

وحملتنا سيارة صغيرة إلى أقليم مجاور للعاصمة الموريتانية نواكشوط يسمى أقليم « أطار » وبعد ساعتين قطعتها السيارة عبر طريق صغير غير مرصوف بدأت ملامح الصحراء تظهر حولنا . اقتربنا من مدينة كبيرة من الخيام .. كانت الإبل .. والأبقار والخيول تنتشر فى كل مكان حولنا وتنطلق أصواتها فى سكون الليل فتسرى فى الفضاء.. والقمر يلقى بضوئه على الصحراء الواسعة على امتداد البصر ..

واستقبلنا مشايخ الإقليم .. وأخذنا أماكننا على الأرض أمام

خيمة كبيرة .. كانوا جميعهم كبار السن .. وذقونهم البيضاء تعكس أشعة القمر وفى عيونهم بريق عجيب .. وبدأت أتحدث معهم عن الحياة فى الصحراء .. ثم بدأنا نتحدث عن الشعر ..

وجاء وقت العشاء .. ومع الطعام جاءت امرأة ضخمة تمسك فى يديها « عودا » وأخذت مكانا قريبا منا وبدأت تعزف على عودها وتغنى الأشعار العربية القديمة . وبدأ وصول الطعام .. كميات هائلة من اللحوم فى طبق ملىء بالأرز .. وآخر ملىء « بالكوسكسى » وأوانى أخرى مليئة باللبن .. يأكلون اللحوم ويشربون اللبن .. وفى الأرز كميات هائلة من السمن .. والكرم من أهم صفات سكان الصحراء ، ولايحمل المسافر زادا؛ لأنه يلقى الترحيب أينما ينزل ولو عند أناس لايعرفونه ولايعرفهم .

وبعد أن انتهى العشاء جاءت أكواب الشاى وإذا لم تقدم للضيف الشاى فى موريتانيا فأنت لم تكرمه ولو ذبحت له جملا . هكذا يعتقدون .

وبدأت الحجارة تصطدم بعضها ببعض وتنطلق منها شرارات النار يستخدمونها بدلا من الكبريت فى إشعال سجائرهم .. بينما كانت أعواد « السواك » تعبث بالأفواه من وقت لآخر ، واقتربت من المغنية وسألتها .. هل تحترفين الغناء ؟ قالت : نعم .. ولنا فى كل مناسبة نوع من الغناء .. عندما يجلس الضيوف أغنى لهم من شعر الترحيب

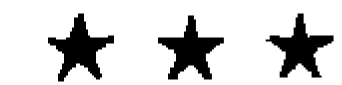
والفخر .. وعندما يكون هناك عرس أغنى الغزل والنسيب . وعندما تقوم المعارك أغنى أشعار الحماسة والفخر ..

وأسألها : من علمك العزف على العود ؟ قالت : ورثت ذلك عن والدتى فقد كانت تعزف العود وتغنى .. وأنا أحفظ الكثير من الشعر.. أحفظ للمتنبى .. وأبى فراس الحمدانى .. وأبى نواس .. وعنترة .. وألحن الشعر لنفسى .. وأحب الشعراء إلى قلبى أبو فراس الحمدانى .. قلت لها : وماذا تغنين له ؟ .. قالت : ماتشاء .. قلت : ليتنا نسمع أراك عصى الدمع شيمتك الصبر .. وبدأت تردد كلمات أبى فراس ونغمات عودها تنطلق عبر الصحراء . لم يكن لحن أم كلثوم الشهير ، ولكن المطربة الموريتانية كانت تغنى الشعر على طريقتها .. ولم يكن صوتها مزعجاً .

وهكذا يعيش سكان الصحراء .. الشباب لايجلسون أبداً مع آبائهم .. ولا يأكلون معهم .. ويعيش السكان فى المكان حتى يجف العشب فيه .. فيبحثون عن أماكن غيره .. وللشباب مظاهر لهوه وطربه.. وللشيوخ أيضاً جلساتهم يسمعون فيها الغناء .. ويرددون الأشعار القديمة وكان الليل ينتصف ونحن نأخذ سيارتنا القديمة ونعود إلى نواكشوط .

وكان على فى اليوم التالى أن أعود إلى السفينة .. حيث تواصل

رحلتها .. وأكثر ما يخيفنى أننى سأعود إليها عن طريق «الونش » الذى حملنى عندما وضعت قدمى على أرض موريتانيا لم يكن فى ميناء نواكشوط أرصفة ، ولذلك كانت البضائع تنزل من السفينة فى عوامات صغيرة بالأوناش .. ولم يكن هناك من وسيلة للهبوط من السفينة غير أن يحملنى أحد الأوناش ويضعنى فى عوامة تحملنى إلى الشاطئ .. وكان لابد أن يحملنى الونش مرة ثانية من أرض موريتانيا إلى سطح السفينة .. كى نبدأ من جديد .. رحلة جديدة ونعود للبحر مرة أخرى .



غينيا .. بين الفقر والكرامة

هناك شعوب تصنعها أقدارها . وهناك شعوب تصنع أقدارها . والشعب الغينى شعب اختار لنفسه أن يصنع قدره .. ولذلك يتحمل الكثير من أجل تأكيد ذاته رغم كل ما يتعرض له من ضغوط سواء من الشرق أو من الغرب .

عندما وضعت قدمى على رصيف ميناء كوناكرى استقبلنى اثنان من الجنود قاما بتفتيشى . ولم أحاول أن أسأل عن أسباب ذلك لاعتقادى فى شىء واحد ، هو أنك فى بلدك تساوى شيئاً .. وبعيداً عن بلدك لاتساوى أى شىء مهما كانت قيمتك .

وبعد أن صافحنى مدير المكتب التجارى المصرى فى غينيا سألته: ماذا هناك ؟ فقال : واحدة من محاولات الانقلاب العديدة التى

شهدتها البلاد أخيراً ضد الرئيس سيكتوري وقد تم إخمادها ويحاول الجيش الآن السيطرة على الموقف ... ويبدأ على الفور يحكي قصة واحدة من الانقلابات العديدة التى شهدتها غينيا ..

كان أحمد سيكتورى آخر زعماء حركات التحرير فى غرب أفريقيا مع نهاية الستينيات . كان حكم نكروما قد انتهى فى غانا وأصبح لاجئاً سياسياً يعيش فى أحد المبانى المتواضعة فى كوناكرى وتهاوى حكم موديبو كيتا فى ساحل العاج .. وكان جمال عبدالناصر قد تعرض لضربة مماثلة فى نكسة ٦٧ .

كان سيكورتورى زعيم غينيا يدرك أن الدور سيكون عليه .

وكانت أولى بوادر محاولة الانقلاب عندما حدثت حركة تذمر فى الجيش فى مدينة « كواندارا » الواقعة على حدود غينيا مع السنغال .. وقام ٣ من ضباط سلاح المظلات بمحاولة الانقلاب وكان من بين أهدافهم الرئيسية اغتيال الرئيس سيكتورى .

وذهب وزير الدفاع إلى منطقة التذمر وتمكن من القبض على قادة الانقلاب وقرر ترحيلهم فى طائرة خاصة إلى كوناكرى لتقديمهم للمحاكمة .

وأقلعت الطائرة متجهة إلى العاصمة وفوجىء قائد الطائرة

بالضباط الثلاثة يغتالون اثنين من ضباط الأمن كانا مكلفين بحراستهم ثم قاموا بالقاء الحارسين من الطائرة .

بعد ذلك أرغموا قائد الطائرة على تغيير خط سيرها لكى تهبط فى أى دولة أفريقية مجاورة ، وأطاع قائد الطائرة أوارمرهم فى بداية الأمر ، إلا أنه سرعان ما أقنعهم بأن وقود الطائرة قد نفذ وأنه مضطر إلى انزول فى مدينة على حدود مالى . وهبطت الطائرة بالفعل ولكن فى مدينة « ماليا » الواقعة فى حدود غينيا . وهناك تمكن رجال البوليس فى المدينة من القبض على الضباط الثلاثة وتم ترحيلهم إلى العاصمة وتقديمهم للمحاكمة .

تابعت فى غينيا الانقلاب .. ابتداء بأخبارها فى الصحف وانتهاء بأسبابها .

كان من أهم الأسباب أن سيكتورى حاول أن يحد من نفوذ الجيش فى غينيا فطالب الجيش بالمشاركة فى الأعمال الزراعية .. ثم حاول سيكتورى أن يطبق نظام مرتبات العاملين المدنيين على الجيش بحيث يكون هناك قانون موحد للمرتبات يتساوى فيه الجميع ودون تمييز لمرتبات العاملين في الجيش .

وكان سيكتورى قد قرر أن يضع الجيش تحت الإشراف المباشر للحزب ، وأصبح الجيش بذلك مثل أى جهاز فى الحزب وثار الضباط

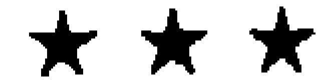
على سلب امتيازاتهم ، ومساواتهم ببقية أبناء الشعب الغينى . وتعددت محاولات الانقلاب .. وساعدهم فى ذلك أن الظروف الاقتصادية فى غينيا كدولة نامية كانت قاسية .. وكان من أخطاء التجربة الغينية أن الجانب السياسى كان يحتل الأهمية الأولى فى حياة الشعب الغينى ، فكانت المصانع تتوقف أياما كاملة من أجل المناقشات الحزبية .. والمهرجانات السياسية .. فى كل مكان مهرجانات وخطب ومناقشات بيزنطية لاتجدى فى شىء .. وكل ذلك كان على حساب الإنتاج .. ويضاف إلى ذلك أن غينيا كدولة نامية كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على القروض لتمويل مشروعاتها ، ولكن المشكلة أن معظم القروض التى حصلت عليها غينيا بعد الاستقلال كانت قروضاً قصيرة أو متوسطة الأجل سواء من دول الكتلة الشرقية أو من الغرب ولذلك سرعان ما أصبحت هذه القروض تمثل مطالب وأعباء ملحة بالنسبة للحياة الاقتصادية فيها .

ورغم المصاعب الاقتصادية التى واجهتها غينيا إلا أن الشعب الغينى كان سعيداً باستقلاله .. وكان إحساسه بالحرية أهم كثيراً من رغيف العيش ولذلك تحمل الكثير ..

ورغم كل هذه الظروف فقد ظل سيكتورى يمثل الزعامة التى لاتناقش فى الشارع الغينى حبا وتقديراً ، ومازال يقود سيارته بنفسه فى شوارع كوناكرى وبجواره زوجته التى تعمل فى أحد المحلات

الكبرى، واعتاد كل يوم أن ينهى أعماله فى مكتبه ثم يذهب حيث تعمل زوجته ويصحبها ثم يعودا إلى بيتهما . وكثيراً ما يستوقفه المواطنون فى غينيا فى الشارع لشرح مشاكلهم أو تقديم شكاواهم .

والشعب الغينى شعب يعتز بفقره من أجل كرامته . وقد استطاع سيكتورى أن يخلق تياراً وطنياً جارفاً ساعده كثيراً فى مواجهة مشاكله الاقتصادية فقيمة الفرنك الغينى فى تدهور مستمر والصناعات الغينية الناشئة تواجه مشاكل كثيرة . والمصانع تركها الفرنسيون شبه معطلة . بل إنهم أحرقوا الكثير منها .. ولكن غينيا مازالت تواجه بشجاعة مشاكلها من أجل شىء واحد هو المحافظة على الاستقلال .



ثمن الحرية ..

الحرية لها قيمتها فى عالم الحيوان .. ولايقل إحساس الحيوان بحريته كثيراً عن إحساس الإنسان وخاصة إذا أدركنا أن حرية الحيوان ربما لاتوجد فيها القيود التى تحد من حركة الإنسان .

والقصة التى سنرويها كانت من أبرز الأحداث الإنسانية التى عاشتها مدينة كوناكرى .

كان أحد المستوطنين الفرنسيين يمتلك « غوريلا » منذ عدة سنوات ، وكان الرجل يعيش وحده ولم يتزوج .. والغوريلا هى الشىء الوحيد الذى يؤنس وحدته وخاصة أن السن كانت قد تقدمت به وأصبح يعانى أمراض الوحدة والشيخوخة وهو فى أرذل سنوات عمره . كان الرجل الفرنسى قد درب الغوريلا على أشياء كثيرة . فهى تساعده فى

البيت . وأخذ يدربها حتى تمكن من أن يجعلها تشترى له الخضار والفاكهة من السوق . ودربها على ركوب الأوتوبيسات بحيث تجلس مع الناس .. وعودها على السلوك المهذب فهى لاتعتدى إلا على من يحاول الاعتداء عليها .

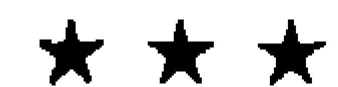
وكان الرجل يضع النقود فى سلة صغيرة تحملها الغوريلا إلى السوق ، وعرفها تجار الفاكهة ، وباعة الخضروات ، وكان كل واحد منهم يقرأ ورقة صغيرة فى السلة ويضع ما كتب فيها ويأخذ قيمته .. كان الكمسارى كل يوم يقترب منها ويأخذ قيمة التذكرة من السلة .

وذات يوم نسى صاحب الغوريلا أن يضع النقود فى السلة وذهبت الغوريلا وركبت الأوتوبيس كعادتها وتصور الكمسارى أن النقود فقدت منها فأخذ يسألها عن النقود بصوت مرتفع . وتصورت الغوريلا أن الكمسارى يريد الاعتداء عليها فأمسكت برقبته وحمل الركاب الكمسارى مصابا إلى أحد مستشفيات كوناكرى حيث مات متأثراً بجراحة . وتقرر أن تأخذ الغوريلا عقابها وأن تقضى بقية حياتها فى أحد أركان حديقة الحيوان فى كوناكرى .. وفى مكان بعيد فى الحديقة كانت الغوريلا تعيش فى قفصها وتنظر فى ذهول للناس .. وكانت الدموع تتساقط من عينيها وهى تضع يدها على وجه صاحبها الذى كان يحرص أن يزورها كل أسبوع ومعه الطعام .. وكان صاحبها يحرص أن

يقضى معها وقتا طويلا فى يوم أجازته ربما كانت تهمس له ببعض أحزانها . ربما كان هو الآخر يهمس فى أذنها ببعض كلمات تواسيها .. ربما كان يشرح لها أحزان وحدته وهو يعيش آخر أيامه .

وكانت الغوريلا تبكى .. فهل ترى تبكى حظها السيء فى دنيا البشر الذى انتهى بها إلى هذا المصير ؟ أم تبكى على الكمسارى الذى قتلته وتشعر بعقدة الذنب تطاردها ؟ أم تبكى على صديقها الذى تركته وحيداً ؟ أم تبكى على حريتها وهى تعيش أيامها بين القضبان؟

المهم أن الغوريلا تبكى . وهناك كثيرون من البشر فقدوا القدرة على البكاء !!!



فى الكميرون
عرايا فوق العجلات البخارية

السفينة تقترب من ميناء دوالا فى الكاميرون .. الغابات الاستوائية تظهر من بعيد على الشاطىء الإفريقى .. جزيرة ضخمة قريبة من الساحل يقولون إنها ملك لأحد الرؤساء الأفارقة تغطيها الأشجار الخضراء فلا يظهر فيها شىء غير اللون الأخضر .. ميناء دوالا ميناء صغير نسبيا .. ولكنه هادئ تماما .. درجة الحرارة مرتفعة وأسوأ ما فى الجو ارتفاع درجة الرطوبة وهكذا المناخ فى المناطق الاستوائية .. أصبحت الآن بلا كاميرا بعد أن سرقوا الكاميرا التى كنت قدأشتريتها من ميناء الإسكندرية فى ميناء كوناكرى .. واقتربت السفينة من الشاطىء .. ووجدت قدمى على الأرض بعد أسبوع كامل استغرقته الرحلة من كوناكرى إلى دوالا ..

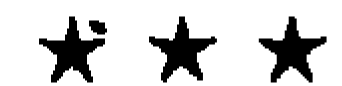
وكان أول ما فعلته أننى ذهبت إلى إحدى المحلات التجارية واشتريت كاميرا جديدة دفعت فيها ٧٠ دولارا .. ومع المساء بدأت أطوف شوارع مدينة دوالا .. المدينة عبارة عن كتلة من الملاهى الليلية.. أعدت خصيصا للبحارة .. ولم يبق معى من البحارة أحد . ولم أجد بجوارى غير موظف المكتب التجارى المصرى فى دوالا .. وبدأنا نطوف شوارع المدينة .

فتيات الليل كل واحدة منهن تركب عجلة بخارية صغيرة تطوف بها الشوارع .. واذا أعجبك شكلها .. تستطيع أن تشير لها ، وتحملك خلفها على العجلة البخارية إلى حيث تعيش .. ولكل فتاة من فتيات الليل فى دوالا حجرة صغيرة تعيش فيها وتمارس حياتها كيفما شاءت .. والحرية الاجتماعية سلوكا وعملا مكفولة تماما لها بحكم القانون .. ويختلف مستوى بنات الليل .. هناك من تمتلك حجرة صغيرة فى مسكن - وهناك من تمتلك مسكنا كبيرا وكل شىء له ثمن .

وأصبحت مدينة دوالا تعيش على السياحة .. والنساء فيها أهم كثيرا من الرجال ، بل إن الزوج يطلب من زوجته أن تأخذ عجلتها وتدور فى الشوارع علها تأتى له برزق جديد ؟ وابتسمت وأنا أطوف شوارع دوالا وأسترجع قصة حكاها لى صديق أثناء الرحلة فقال: إن من بين

مظاهر الكرم عند بعض الأفارقة أن يقدم الزوج زوجته لصديقه أو ضيفه إكراما وترحيبا به ! .

كانت الأضواء الحمراء تغطى كل شيء فى دوالا .. والفتيات على أبواب النوادى الليلة من جنسيات مختلفة .. الأبيض والأسود . والكل يبحث عن المال .. ولم يكن أمامى فيها غير ساعات سنقضيها ونرحل .. ولذلك لم أر فيها غير فتيات الليل !



النوم داخل صندوق ذخيرة

ما أسوأ الحروب .. كان ذلك هو الدرس الأول الذى تعلمته فى أول حياتى العملية والسيارة تمضى بنا وأصوات الجماجم تنبعث تحت عجلاتها فى صورة تعكس مأساة الإنسان عندما يفوق فى قسوته كل ما خلق الله من كائنات على هذه الأرض .. ومن يومها وأنا أكره الحروب كما لم أكره شيئاً فى حياتى .

فلقد وجدت نفسى فجأة مطالبا بأن أذهب إلى مواقع قتال .. وليته قتال عادى .. إنه نوع من الاغتيال الوحشى الذى يعكس مدى انحطاط السلوك البشرى عندما يقتل الإنسان أخاه وعندما يطلق الصديق النار على صديقه . وعندما يحرق الجار بيت جاره وكانت مأساة ...

كانت الحرب الأهلية فى نيجيريا قد بلغت حد المأسة بعد أن أعلن الإقليم المنشق « بيافرا » استقلاله عن الوطن الأم نيجيريا بزعامة رجل مهووس يسمى « أوجوكو » وكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى التى انطلقت بعدها الحرب الأهلية التى استمرت أكثر من ثلاثة أعوام كاملة . ولعلها واحدة من المأسى الإنسانية التى ضاع ضحيتها مئات الألوف من البشر من أجل طموح رجل موتور يحب الزعامة .

فى اليوم الأول لوصولى إلى « ليجوس » عاصمة نيجيريا ذهبت إلى وزارة الإعلام وطلبت تسجيل اسمى ضمن وفد الصحفيين الذين سيسافرون إلى « بيافرا » لتغطية أحداث الحرب فى مواقع القتال .

كانت الحرب الأهلية توشك على نهايتها بعد أن استولت القوات النيجيرية على آخر معاقل « أوجوكو » زعيم الحركة فى مدينة تبعد عن ليجوس بأكثر من ١٥٠٠ ميل وهى مدينة « أوماهيا » .

وجاء المراسلون الأجانب يسجلون نهاية القصة الدرامية لمأساة الحرب الأهلية فى نيجيريا التى صورتها صحافة الغرب ظلماً على أنها حرب دينية يريد المسلمون فيها إبادة المسيحيين.

وطوال الأيام العشرة الأولى لإقامتى فى ليجوس كنت أذهب كل يوم إلى مطار ليجوس لكى تحملنى الطائرة إلى مواقع القتال .. وكنا نعود من حيث جئنا لعدم وجود أماكن لنا فى الطائرات. وبدأنا نفقد

الأمل فى الوصول إلى أوماهيا. وبدأ مراسلو الصحف الأجنبية يعودون إلى بلادهم. ومنهم من فكر فى الذهاب إلى بيافرا، وتغطيه أخبار الحرب من الجانب الآخر. وبعد أسبوعين تقريباً من الانتظار بدأت افقد الأمل وخاصة أن رفاقى جميعاً سافروا ولم يبق منهم أحد، وحاولت أن أصبر نفسى أياماً أخرى فقد أنجح فى محاولتى . وذات يوم وكانت الآمال قد بدأت تتلاشى مع مضى الوقت فوجئت بصديق مصرى تعرفت به هناك هو الطيب مكى يتصل بى تليفونياً ويخبرنى أنه بذل مسعى فى وزارتى الإعلام والحربية من أجل سفرى . ومن المتوقع أن أسافر إلى «أوماهيا » غداً فى الصباح.

وصدق الأمل هذه المره ..

وفى الساعة الثانية عشرة من صباح يوم ١٦ من مايو من عام ١٩٦٩ كانت إحدى طائرات سلاح الجو النيجيرى تحلق بنا فى سماء مدينة ليجوس متجهة إلى بيافرا.

من البداية شعرت إن فى الأمر شيئاً. ليس فى الطائرة « سلالم » تحملنى .. وجدت نفسى واقفاً على أحد الأوناش رفعنى إلى باب الطائرة.. كان عددنا ٧ صحفيين ٦ منهم يمثلون الصحف النيجيرية وكنت معهم الصحفى الأجنبى الوحيد . وعندما دخلت الطائرة اتجهت لأبحث عن مقعد أجلس عليه فوجدت الطائرة بلا مقاعد. ومظلمة تماماً

إلا من نافذة صغيرة وحيدة يتسرب منها ضوء خافت. وكانت نوافذ الطائرة مغلقة بستائر حديدية لا يتسرب منها الضوء .

وبدأ العرق يتصبب منا بعد أن أغلقوا باب الطائرة وكانت درجة الحرارة قد تجاوزت ٤٥ درجه مئوية يضاف إليها بالطبع ارتفاع درجة الرطوبة.

وأخذ كل واحد منا صندوقاً وجلس عليه . وعلى بعد أمتار منا شاهدت فى أحد جوانب الطائرة مجموعة من الجنود . وبدأ شخيرهم يعلو وهم نائمون فوق الصناديق.. والطائرة تشق طريقها وسط السحاب الأسود الذى يظهر أحياناً فى النافذة الوحيدة المضيئة فى الطائرة.

ووجدت أحد الجنود يصحو من النوم فسألته ماذا يوجد فى هذه الصناديق ؟ فقال مبتسماً ألا تعرف ؟ أنها صناديق ذخيرة. وشعرت أننى ذهبت فى غيبوبة وبعد أن أفقت بدأت الهواجس تطاردنى إن درجة الحرارة وحدها كفيلة بتفجير كل هذه المصائب . إن عقب سيجارة واحد يمكن أن يجعل من أجسامنا أجزاء لا تزيد كثيراً عن حجم السيجارة نفسها.

لماذا لم يخبرونا بذلك قبل أن ترحل الطائرة. وأخبرت أحد الصحفيين بالخبر .. وسرعان ما أدرك الجميع خطورة ما نحن فيه.. وبدأت ملامح الذعر تسيطر على الوجوه .. ولم يكن أمامى أن أفعل

شيئاً غير أن أترك رأسي على أحد الصناديق والحر يكاد يخنقنى لأن التهوية فى الطائرة لم تكن كافية. مشاعر الخوف تحاصرنى. تخيلات كثيرة تتزاحم فى رأسي. لماذا فكرت فى هذا الموضوع؟ وهل يستحق تحقيق صحفى مهما كانت قيمته أن يضحى الإنسان بحياته من أجله؟ هذه هى الصحافة.

وبعد رحلة طويلة عبث الخوف خلالها بكل مشاعرنا وجدنا الطائرة تستعد للهبوط . وكان قد مضى علينا من الوقت ما يقرب من ساعتين فى الجو إلا أن حقيقة ما أحسسنا به كان أطول من عامين.

وهبطت الطائرة فى مطار « أونوجو » عاصمة بيافرا ومعها عادت قلوبنا إلى أماكنها فى الضلوع .

وعلى امتداد طريق طويل حملتنا إحدى السيارات العسكرية إلى داخل المدينة. هذه هى المدينة التى خرجت منها أول صيحة للانفصال عندما أعلن « أوجوكو » زعيم الإقليم المنشق قيام دولة بيافرا فى يونية عام ٦٧ .. ومن هذه المدينة انطلقت أول رصاصة تعلن قيام الحرب الأهلية فى نيجيريا .. ولم يكن يعلم أحد يومها أن الشعب النيجيرى سوف يخسر فى هذه الحرب ١٠٠ ألف مواطن حسب أقل التقديرات و٢ مليون مواطن كما تقول بعض التقديرات .

وتقدمت قوات الحكومة النيجيرية تحاول إحباط محاولة الانفصال وبدأت الحرب.

وإقليم بيافرا يعتبر من أغنى المناطق فى نيجيريا. فيه أخصب الأراضى الزراعية النيجيرية. وتوجد فيه أيضاً أهم حقول البترول ويوجد فى هذا الاقليم صفوة المثقفين فى نيجيريا من الذين درسوا فى جامعات أوربا وغيرها. ويقال: إن الغرب كان ينظر بعناية خاصة إلى إقليم بيافرا، وكانت دول أوربا توليه أهمية خاصة من حيث البعثات التعليمية والتبشيرية كما أن فى هذا الإقليم جالية مسيحية ضخمة.

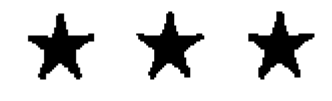
كان سكان مدينة أونوجو عندما بدأت الحرب يتجاوز مليون نسمة ويوم أن دخلتها فى مايو ٦٩ كان عدد سكانها لا يتجاوز ألف نسمة من غير العسكريين. وسقطت مدينة أونوجو بعد ٥ أشهر من المعارك الضاربة. وبدأ أوجوكو ينسحب بقواته.

مدينة أونوجو مدينة جميلة شوارعها نظيفة فيها جامعة ضخمة تقع فى إحدى ضواحيها. بجانبها مكتبة كبيرة تشبه دار الكتب عندنا. وفى داخل المكتبة ترى صورة الحرب ومأساتها. وكيف أنها تدمر كل عطاء العقل البشرى ابتداء بالكتب وانتهاء بالإنسان نفسه. الكتب ودوائر المعارف ممزقة وملقاة فى أماكن متفرقة والأرفف محطمة. وأكوام التراب تتراكم على الكتب. والقرود الصغيرة تعبث هنا وهناك تمزق كتاباً أو تحطم رفاً. وعلى الأرفف السليمة كانت آخر طبعات الكتب الأجنبية ودوائر المعارف العالمية.

شوارع المدنية تنحدر بين الارتفاع والانخفاض حيث يوجد فيها بعض المرتفعات. ورغم مرور ما يقرب من عامين على استيلاء الفيدراليين عليها إلا أن آثار الحرب كانت ما تزال تسجل بصماتها على البيوت الخالية.. وما زالت آثار طلقات المدافع والدبابات فوق الجدران وعلى الطرق والبيوت.

السيارات المحطمة يحيط بها الصدأ . والثلاجات وأجهزة التكييف ملقاة فى الشوارع والبيوت خربة ومنهوبة تماماً. ولم يكن فى المدينة كلها سوى عدد من السكان يقل كثيراً عن عدد القرود التى تلعب فوق الأشجار. وفى الليل كانت بعض الأضواء تتناثر من بعيد فى أماكن متفرقة من المدينة فى بضعها كانت بعض فتيات المدينة يجلسن مع الجنود فى بارات صغيرة ولكن الظلام كان يحيط بكل شىء. وكان لابد أن نقضى ليلتنا فى هذا الظلام لكى نستكمل رحلتنا إلى مواقع القتال على بعد ٥٠٠ ميل من مدينة أونوجو.

وقضينا ليلتنا فى « أونوجو » المدينة الجميلة التى تحولت إلى بقايا وأشلاء . امرأة جميلة اغتصبها رجل مجنون وتركها فى ليلة شتاء تكابد أحزانها وهى عارية فى منتصف طريق. هكذا كانت مدينة أونوجو التى دمرتها الحرب فلم يعد للجمال مكان فيها.



رحلة الموت ..

فى صباح اليوم التالى انطلقت بنا سيارة لاندروفر متجهة إلى مدينة أوماهيا. كان فى حراستنا سيارتان تحمل كل واحدة منهما عشرة جنود مسلحين بالمدافع الرشاشة. كانت إحداهما تسير أمامنا . والثانية تسير خلفنا.

على امتداد هذا الطريق دارت معارك عنيفة انسحبت خلالها قوات أوجوكو عندما استولت القوات الفيدرالية على مدينة أونوجو.

حول هذا الطريق توجد أكثر غابات نيجيريا كثافة.. وفى أجزاء واسعة منها كانت تدور المعارك والمذابح . المدن الصغيرة خالية تماماً . أكثر من هذا أن هناك قرى بأكملها لا يوجد فيها جدار واحد قائم .. ولا توجد فيها بقايا شجرة خضراء. هذه هى الحروب تقتل فى الإنسان أنبل

مشاعره. وإذا كان الإنسان يريد أن يحرق أخاه الإنسان . فلماذا يحرق معه كل شيء.. لماذا يحرق الأشجار وما ذنبها ؟ لماذا يغتال الزهور وقد خلقها الله كلى تعلمه كيف يحب الجمال ؟ وها هو يتعلم كيف يقطع الرقاب . كم من الأحلام والمشاعر تلاشت تحت هذه الأنقاض.

لم يكن أوجوكو يعتقد يوماً من الأيام أن الفيدراليين سوف يصلون إلى مدينة أوماهيا التى جعلها عاصمة ثانية له فى أكتوبر ٦٧بعد سقوط عاصمته الأولى « أونوجو »، ولذلك قام بنسف جميع الكبارى الموصلة إليها على امتداد الطريق أثناء انسحاب قواته .. وخلال رحلة الانسحاب دمر أكثر من ٢٠ كوبرى كانت تتناثر على طريق الممتد فى قلب غابات نيجيريا.

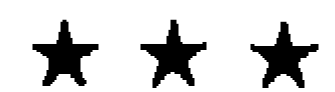
كان عدد سكان مدينة أوماهيا قبل بدء الحرب نصف مليون نسمة ارتفع مرة واحدة إلى مليون ونصف مليون شخص بعد أن أصبحت عاصمة للإقليم المنشق لأن أوجوكو كان ينسحب بكل أتباعه وسكان إقليمه ابتداء بالجنود وانتهاء بالأطفال ..

والآن أصبحت مدينة أوماهيا خالية من السكان تماماً. ما زالت النيران مشتعلة في البيوت . وسحابات الدخان تتصاعد من هياكل السيارات الملقاة على جوانب الطرقات، وكان أول من إستقبلنا فى مدخل المدينة أسراب من الغربان والحدايات لعل بين أسنانها بقايا مما أكلت من حلوم البشر . كانت رائحة الجثث تغطى كل شيء فى المدينة . رائحة

لاتطاق. وكانت الجثث ما زالت ملقاة على الأرصفة وجوانب الطريق وعلى الطريق نفسه، ولا أنسى أصوات الجماجم تحت عجلات السيارة. وجثث القتلى المعلقة على الحبال فى الشوارع.

اتجهت بنا السيارة من مدخل المدينة إلى الشارع الزئيسى. وفى مذخل الشارع كانت محطة السكة الحديد ويقف فيها قطار وحيد لعله لا يعرف متى يتحرك من هذا المكان . ومتى يعود له المسافرون الذين لم يعودوا . وبجوار القطار مجموعة من براميل الزيت وبقايا من المدافع المحطمة، وبقايا قطار مهشم وأمام محطة السكة الحديد محطة بنزين أمامها ٥ سيارات محترقة تماماً . وفى داخل محطة القطار تناثرت أشلاء مجموعة ضخمة من التذاكر والصحف .. والمجلات.. والأختام.

كانت أصوات نعيق الغربان لا تفارق آذاننا . وكانت صور الدمار تنعكس فى كل مكان وتعكس معها حجم المأساة . إنها مأساة الإنسان عندما يفقد آدميته.



فى البيت السرى !

من هنا استطاع أوجوكو أن يهرب عن طريق منزله السرى الذى أقامه من أجل هذه اللحظة. وهكذا استطاع الزعيم أن يهرب ويترك خلفه آلالف الجثث والضحايا .ولم يسأل عن مصير أحد من هؤلاء جميعاً. إن أسوأ أنواع الطموح ذلك الذى يتحقق على أشلاء الناس ومعاناة الشعوب . ما أكثر الذين جعلوا من أشلاء شعوبهم طريقاً للمجد.

من باب كشك صغير تدخل إلى بيت أوجوكو.. كشك يشبه إلى حد كبير أكشاك الحراسة أمام بيوت كبار المسئولين عندنا. كان قصر أوجوكو العادي يظهر أمامنا .. وأمامه حديقة واسعة .. وفى مدخل القصر كشكان صغيران.. وقيل لنا : إنهما يوصلان إلى البيت السرى أسفل القصر.

فى نهاية الكشك باب صغير لا تزيد مساحته عن مترونصف متر مربع . وتركنا الباب لكى نهبط على سلم ضيق كان عدد درجاته ٢٥ درجة، كنا نسير على ضوء بطارية صغيرة كل واحد منا يحاول أن يقترب من حاملها . رائحة الأسمنت ومواد البناء ما زالت تنبعث من جدران السرادب الطويل. وفى نهايته فوجئنا بسلم صغير هبا بنا إلى سرادب آخر انتهى بنا إلى مدخل البيت السرى . فى المنزل الصغير حجرة مكتب.. فيها مكتب ومكتبة وكرسى واحد وبجوار المكتب خزينة ضخمة مفتوحة لم يكن فيها شىء بالطبع. وبجانب حجرة المكتب توجد حجرة نوم فيها سرير صغير وبجوارها مطبخ وحجرة للطعام . وفى نهاية حجرة الطعام باب صغير يوصل إلى سرادب آخر طويل فى نهايته سلم حديدى مثبت على حائط مرتفع وتسلقنا السلم الحديدى الذى يزيد طوله على ١٥ متراً. وفى نهاية السلم وجدنا أنفسنا فى غابة واسعة بعيدة تماماً عن باب القصر الحقيقى لأوجوكو. بل بعيدة بمسافة كبيرة عن المدينة نفسها . كانت أمامنا غابة شاسعة مليئة بالأشجار الضخمة وعن طريق هذا البيت السرى وهذه الغابة هرب أوجوكو مع انتهاء محاولته ووصول قوات الفيدراليين إلى أوماهيا. وفى هذه الغابة انتهى آخر حلم لأوجوكو بإقامة دولة مستقلة يصبح زعيماً لها. وشعرت باضطراب نفسى قاتل وأنا أرى صورة الحرب وماتفعله بالناس .. لماذا يفعل الإنسان كل هذا ؟. لا أعتقد أن الله قد خلقنا لكى نفعل ذلك كله بأنفسنا.

كنت أريد أن أغمض عينى عن كل ما رأيت . وكانت الشمس تختفى من بعيد خلف أشجار ما زالت تتشبث بالحياة.. ولكن سحابات الدخان كثيراً ما كانت تخفى بقايا ضوء الشمس الذى يحاول أن يتسلل بين أوراق الأشجار. كانت أصوات الرصاص تنطلق حولنا .. وكثير من الرصاصات الطائشة تمر فوق رؤوسنا. لأن المعارك ما زالت تدور فى مدينة صغيرة تسمى « أورى » على بعد ميل واحد من المكان الذى نقف فيه . وكانت أمام القادة العسكريين فى أوماهيا احتمالات كثيرة أن يقوم خلفاء أوجوكو وأتباعه بعمل هجوم مضاد على مدينة أوماهيا. وكانت هناك احتمالات أن يتم ذلك الليلة فى الوقت الذى نقف فيه فى أحد شوارع المدينة. وشعرت بخوف شديد . وطلبت من قائد الحرس الذى يرافقنا أن نعود إلى أونوجو بحجة أننى أريد إرسال رسالة صحفية إلى الجريدة وأن ميعاد الطائرة سيكون غداً .. ووافق قائد الحرس على العودة.

وقبل أن تحملنا السيارة قال لنا قائد الحرس بعض التوجيهات.. ممنوع التدخين على امتداد رحلة العودة.

ممنوع الأحاديث إطلاقاً بعضنا مع البعض بصوت مرتفع..

ممنوع على سائقى السيارات إضاءة الأنوار العالية إلا فى مواقع المطبات وهى معروفة للسائقين ويفضل ألا تضاء الأنوار إطلاقاً.

سمعت هذه النصائح وأنا أرتجف. السبب فى كل هذه النصائح كما قال الضابط أن بعض أنصار أوجوكو مازالو يتمركزون فوق الجبال المحيطة بالطريق ويطلقون الرصاص على كل من يمشى على الطريق مدنياً كان أو عسكرياً.

واخترت أن أجلس فى مكان قد يكون فيه بعض الحماية .. جلست بين السائق وأحد الصحفيين النيجيريين وذلك على أمل واحد أنه إذا جاءت رصاصة طائشة من الجانب الأيمن أو الأيسر فلن تصيبنى بسوء.. ولكن ماذا أفعل لو جاءت من أعلى والسيارة مكشوفة.. لا شىء يمكن أن أفعله بالطبع ؟

وتمر الساعات بطيئة وأنا لا أجد على لسانى شيئاً أقوله غير أن اقرأ ما تيسر لى من القرآن الكريم وأنا أحدق فى الطريق.. وأكثر من مرة نجد أسلحة موجهة إلى رؤوسنا من حراس الطريق ولا تهدأ هذه الأسلحة وتعود إلى أماكنها بكلمة السر.

السائق بجوارى يغنى بكلمات جميلة يرددها بالعربية.. لأنه مسلم .. طلع البدر علينا من ثنيات الوداع . وجب الشكر علينا ما دعا لله داع.

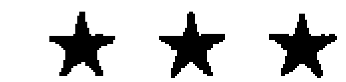
وبعد ٦ ساعات كاملة من الأعصاب المرهقة وجدت نفسى مرة أخرى فى مدينة « أونوجو » ولكن بعد رحلة عذاب لا يمكن أن ينساها الإنسان.

وفى مدينة « أونوجو » سوف نقضى ليلتنا . وفى أحد بيوت الضيافة اتجهنا لكى نقضى هذه الليلة . لم يكن باستطاعتى أن أنام بسهولة بعد كل ما رأيت فقد مر على خاطرى شريط طويل بأحداث يوم حزين لا أعتقد أننى أستطيع ببساطة أن أطويه بين أحادث كثيرة نطويها فى حياتنا.

بجوار السرير الذى كنت أنام عليه كان صحفى نيجيرى آخر ينام على سرير مقابل .. وبعد ساعة واحدة شعرت بحركة تحت سرير « مستر جوك » الصحفى النيجيرى فقلت له مستر جوك .. أسمع صوت حركة تحت سريرك .. واستيقظ جوك فجأة وقال بعد أن سمع صوتاً غريباً يشبه « الشخير » ينبعث من تحت سريره .. ما هذا .. قلت : أعتقد أن هذا الصوت أنفاس ثعبان كبير . وما هى إلا ثوانى حتى قفز مستر جوك إلى الباب وهو يصيح .. ثعبان .. ثعبان .. ثعبان .. ثعبان.. ولم أتحرك من مكانى لأن الثعبان أفضل كثيراً من رصاصة يستقبلنى بها أحد الحراس خارج بيت الضيافة. وعاد مستر جوك ومعه بعض الجنود وبطارقة صغيرة .. وبدأ البحث عن الثعبان تحت سريره .. وتحت ضوء هذه البطارية لاحت سلحفاة كبيرة من النوع الأفريقى الضخم. وكانت تنام فى هدوء تام وتصدر أصواتها.. ونظر أحد الجنود إلى مستر جوك وقال له: إنها سلحفاه وليست ثعباناً. إنها ليست مؤذية.. ولا يمكن أن يدخل الثعبان من النافذة لأن فيها أسلاكاً ضيقة.. ونظرت لأسلاك النافذة

والجندى يوجه بطاريته نحوها فوجدتها واسعة بصورة يمكن أن يدخل منها رأس طفل .. فقلت معنى هذا أن الثعابين في الغابة التى توجد حول بيت الضياقة ضخمة.. فقال الجندى : إنها تبتلع القرود الصغيرة.

وكان ذلك كله كافياً لكى أقضى ليلتى بلا نوم .. وكيف بالله أنام بعد كل ما رأيت وسمعت ؟!.



طائرة بمحرك واحد

لا أستطيع أن أقول : إننى صحوت من النوم .. فأنا لم أنم . وسألت الضابط الذى يرافقنا فى الصباح عن موعد عودتنا إلى ليجوس فقال: لا أعتقد أننا سنعود اليوم . وربما ننتظر فى مدينة أونوجو ثلاثةأيام أخرى .. قلت له حجتى القديمة .. أريد أن أرسل مقالاً للجريدة فقال : لا توجد طائرات ولكننى سوف أبحث الأمر مع المسئولين بالنسبة لك.

كنت قد بدأت أشعر بملل شديد سواء من العمل الذى أقوم به فى بيافرا .. أو من الرحلة كلها .. أريد أن أعود إلى مصر .. وكانت الصور التى رأيتها لا تفارق عينى وحدثت المعجزة .. جاء الضابط وأخبرنى أن هناك طائرة ستسافر بعد ساعة واحدة إلى ليجوس وقد حجز لى مكاناً فيها .. وصافحت زملاء الرحلة وهم يحسدوننى على ما أنا فيه.

وحملتنى سيارة صغيرة إلى المطار واتجهت بى إلى الطائرة تصورها فى البداية طائرة شراعية. فهى لا تزيد عن جسم سيارة صغيرة.. وصعدت على سلم من درجتين فقط إلى الطائرة .. وجلست بجوار سائقها .. ونظرت خلفى فوجدت أربعة من القادة العسكريين النيجيريين يجلسون فى الطائرة .. إنها طائرة بمحركين .

وبدأت الطائرة تتحرك وأنا أجلس فى مقدمتها وكأننى قائدها.. وسرعان ما وجدت نفسى فوق السحاب .. وكانت مشاعر الخوف أكبر من أن أصورها على ورق .. وإن كنت قد شعرت أن إحساسى قد تبلد بعض الوقت من كثرة ما رأيت .. كانت السحب تتدافع أمام الطائرة مثل أمواج السفينة تماماً .. والسماء سوداء قاتمة فنحن فى سماء المنطقة الاستوائية . ويسألنى قائد الطائرة عن جنسيتى فأجيب .. مصرى .. وأسأله وأنت .. هولندى .. ويسألنى بخبث : هل رأيت الطيارين المصريين فى أونوجو؟ قلت .. قابلت عدداً منهم .. ويسألنى : كم عددهم ؟ قلت : لا أعرف . قال : لماذا تحاربون فى نيجيريا.. وحاولت أن أبرر له ، ولكننى لم أكن أجد ما أبرر به لنفسى ، وأخيراً هبطت الطائرة فى مطار ليجوس بعد ٣ ساعات كاملة . ولم أكن أصدق نفسى وأنا أضع رأسى لكى أنام فى فندق « فيدرال بالاس» فى مدينة ليجوس.. ولكننى وجدت مفاجأة أخرى .. وجدت رسالة تقول بأنه قد تحدد لى ميعاد للقاء « رئيس الجمهورية » .

★ ★ ★

مشكلة مع رئيس دولة بسبب جهاز تسجيل !

كانت المرة الأولى التى أقابل فيها رئيس الدولة . وكان من النصائح التى أعتز بها دائماً أن السلطان من بعد عن السلطان . وحياة القمم تحتاج إلى مواصفات كثيرة لابد من توافرها فيمن يريد أن يعيشها .

شعرت يومها بحساسية شديدة بالنسبة للموضوع الذى أكتب فيه وخاصة أن القوات المسلحة المصرية لعبت دوراً مهماً فى وضع خيوط النهاية للحرب الأهلية فى نيجيريا. وقد انعكس ذلك على اللقاء مع « يعقوبو جوون » رئيس الدولة فى ذلك الوقت حيث وجدت اسمى فى أول قائمة الصحفيين الذين استقبلهم جوون . بل إنه رفض فى حالات كثيرة

مقابلة بعض الصحفيين من دول أوربا وخاصة الصحف التى كانت تهاجم سياسة نيجيريا فى الحرب وصورتها على أنها حرب إبادة يقوم بها المسلمون ضد المسيحيين فى أفريقيا .

كان ميعاد اللقاء فى الساعة الثانية عشرة ظهراً . وحاولت طوال الليلة التى سبقت اللقاء أن أجمع شتات أفكارى المبعثرة فى أسئلة صريحة وواضحة. وكنت أشعر بعقدة الصحفى المصرى عندما يستطيع أن يقول كل شىء خارج بلده ولا يستطيع أن يقول شيئاً وهو فيها . وما أثقل أن يصير الإنسان غريباً فى داره. أو يشعر أنه يمثل قيمة فى أرض غير أرضه. فى الوقت الذى يشعر فيه أنه مرفوض بين أهله !! .

واتجهت السيارة التى تحملنى من وزارة الإعلام ومعى مسئول من الوزارة إلى مكتب رئيس الجمهورية وكان ذلك يوم ١٨ مايو من عام ١٩٦٩.

ودخلت السيارة إحدى الثكنات العسكرية والمدافع والدبابات تحيط بنا من كل جانب وتقدم منى أحد رجال الجيش وقام بتفتيشى ثم اصطحبنا ضابط آخر فى السيارة . وفى الدور الثانى بمبنى صغير وجدت شاباً صغيراً يستقبلنى خارج مكتبة .. وكان يعقوبو جوون نفسه.

كان الرجل غاية فى التواضع . ويلمع فى عينيه ذكاء وسرعة بديهة. وقلت له : لعلك يا سيادة الرئيس أصغر رئيس دولة فى العالم

سناً ؟ أرى فيك شباب أفريقيا ، فقال : حقيقة أن سنى الآن ٣٣ سن . ولكننى أعتقد أن الحرب أضافت إلى عمرى مثل هذا الرقم . وضحك قائلاً : لقد تزوجت منذ أسبوعين فقط ولا تستغرب إذا قلت لك أن زوجتى رأتنى مرات معدودة منذ زواجنا.

ثم قال : كان لى أستاذ إنجليزى يدرس لنا الاستراتيجية العسكرية فى لندن وكان دائماً يقول لنا: « يستطيع أى قائد عسكرى أن يحدد الوقت الذى يبدأ فيه الحرب . ولكنه لا يستطيع أبدا أن يحدد الوقت الذى تنتهى فيه ».

بدأت أداعب مفاتيح جهاز تسجيل صغير استعداداً للحديث.. ولم يتحرك الجهاز .. وأعدت المحاولة بلا جدوى وشعر جوون بأن هناك مشكلة . واقترح موظف وزارة الإعلام أن نؤجل الميعاد . واقترحت أنا أن أقوم بترجمة الحديث مباشرة دون حاجة إلى التسجيل وأنا أفضل التسجيل فى مثل هذه الأحاديث؛ لكى تكون أكثر دقة فى ترجمتها . كما أن التسجيل يعتبر وثيقة . لأن بعض السياسيين كثيراً ما يتراجعون فى أقوالهم .

وقام جوون من على مكتبه مسرعاً بعد أن شعر بحرجي . ودخل إلى حجرة صغيرة والعرق يتصبب على جبهتى . وبعد لحظات عاد جوون ومعه جهاز تسجيل . وبسرعة أخذ الشريط من جهازى ووضعه فى الجهاز الذى جاء به وقال : لنبدأ . هذه أول مرة يستعمل فيها هذا

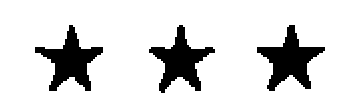
الجهاز.. إنه هدية من صديق عزيز « بمناسبة زواجى » وكأننى كنت على موعد مع المفاجآت حتى يتعطل جهاز التسجيل بهذه الصورة ويتسبب فى إحراجى . وبدأ الحوار .. كان جوون شاباً واعياً مثقفاً مرتب الأفكار. قال فى حديثه : إن الحرب توشك على الانتهاء وإن أوجوكو فى نهاية الطريق . وانتهت الحرب فعلاً بعد شهور . وقال فى حزن : إن أسوأ الحروب أن ترفع سلاحك فى وجه أخيك أو صديقك لأنك بعد الحرب تجد مشكلة أخرى كيف تعيد التعاطف بين أبناء الشعب الواحد ؟ وقد تركت الحرب جراحاً كثيرة وهذه مسئولية كبيرة . ولذلك أنا لا أعتبر أوجوكو وأعوانه « أعداء » إن أوجوكو رجل مريض ويحتاج إلى علاج نفسى لأن شهوة السلطة سيطرت عليه.

وقال جوون : تسألنى إذا ما كانت الحرب فى نيجيريا حرباً دينية، وأقول لك إننا شعب يقدس حرية الأديان . وفى العائلة الواحدة تجد المسيحى والمسلم ، وقدتجد أكثر من أربع ديانات فى الأسرة الواحدة. وإذا كانت الدعايات الغربية تقول : إن المسلمين يحاولون إبادة المسيحيين فماذا يقولون عنى وأنا مسيحى وأقود الحرب ضد الأقاليم المنشق بيافرا ؟ !! .

وسألت جوون : متى يترك العسكريون الحكم فى نيجيريا لكى تعود الأحزاب السياسية لممارسة دورها فى الحياة السياسية فى نيجيريا ؟ قال : سوف أترك الحكم للمدنيين بعد انتهاء الحرب ..

وانتهت الحرب ولم يترك جوون الحكم للمدنيين . وكانت النقطة الوحيدة التى لم يصدق فيها جوون حتى أطاح به الجيش واستولى على السلطة ولم يترك الجيش الحكم للمدنيين .

وجمعت أوراقى وأخذت شريط التسجيل . ولا أنكر أننى حملت ليعقوبو جوون تقديراً كبيراً بعد هذا اللقاء . وفى اليوم التالى كانت الطائرة تحملنى إلى القاهرة بعد أن كانت السفينة قد تركت ليجوس وكان من الصعب أن تنتظرنى .. وكان من الصعب أيضاً أن أعود فيها لكى أقضى ثلاثة شهور أخرى متجولاً فى موانى أفريقيا والبحر المتوسط. كنت قدتعبت صحياً وطالت بى الرحلة. واشتقت لمصر بكل ما فيها وما عليها . وعدت إلى مصر وكدت أقبل ترابها وأنا أهبط من الطائرة .. كانت هذه هى المرة الأولى التى أترك فيها مصر . والتجربة الأولى كما قلت فى البداية تحتل مكاناً خاصاً فى أعماقنا .. ولعلنى تذكرت بعد ذلك قول مسئول كبير فى الأهرام يوم أن سافرت فى بداية الرحلة «إنها المرة الوحيدة التى تستطيع فيها طوال حياتك أن تقوم بمثل هذه الرحلة» ولقد كان صادقاً فيما قال ، فلو عرضت على الآن هذه الرحلة لرفضتها دون تفكير .



عندما يتغير كل شىء

مرة أخرى أعود إلى نيجيريا .. تسع سنوات كاملة تفصل الرحلتين بين أعوام ٦٩، ٧٨. أشياء كثيرة تغيرت فى هذه السنوات .. فى المرة الأولى حملتنى إليها سفينة عجوز عبث الدهر بها وجعل أمواج البحر تعبث بنا . وهذه المرة تحملنى طائرة تلقى بنا فى مدينة ليجوس بعد سبع ساعات فقط ، أشياء أخرى تغيرت فى هذه السنوات لعل أهمها بالنسبة لى هو شجرة العمر التى تساقطت منها تسع سنوات كاملة وخلقت بعدها ذكريات بعضها ترك جراحاً والبعض الآخر ترك ابتسامة عبرت ولم يبق إلا بقايا ظلالها.

يا لسرعة الأيام ! كم من السنين تتساقط من بين أيدينا ولا نشعر بها وهى تنزف دماءها تحت أقدامنها . وتتساقط السنين واحدة

بعد الأخرى حتى تجد الشجرة نفسها عارية من الأوراق .. فتحزن .. ثم تموت .

لم أعد أخاف السفر كما كنت يوماً منذ تسع سنوات مضت . ولكن الشيء الوحيد الذى يجعلنى أفكر الآن قبل أن أسافر طفل صغير.. وطفلة صغيرة وزوجة تنتظر . كنت أسافر ولا أفكر متى أعود ؟ والآن لا أسافر إلا إذا أدركت تماماً متى يمكن أن أعود .. إلا إذا كان للأقدار رأى آخر.

كالعادة تأخرت طائرة شركة الطيران العربية أكثر من ساعتين فى مطار القاهرة .. شابة لبنانية تأخذ مقعدها إلى جوارى .. حيث حديث متصل وطويل عن الحرب فى لبنان ، ما الذى فعل السوريون. وما الذى تركه الفلسطينيون ، وجراح كثيرة تنزف فى أعماق الشابة اللبنانية وهى فى طريقها إلى زوجها الذى هرب من الحرب إلى المناطق الاستوائية فى نيجيريا بحثاً عن الأمن .. والأمان.

حكايات أخرى عن أم كلثوم وفيروز الأطرش ومصر التى تتمنى أن تراها . ولبنان الفتاة الجميلة التى عبث بعض الأشقياء بجسدها وتركوها على أحد الأرصفة فوق طريق مهجور .. دمعتان حائرتان فى عين الشابة اللبنانية وطفلها الصغير ينام على صدرها.

أخيراً أعود مرة أخرى إلى لاجوس .. هذا المكان ودعته من تسع

سنوات . وأنا أحزن كثيراً كلما تذكرت أو صحوت على أيام العمر وهى تتساقط أمامى .. أشعر برعب شديد .. أحس أن شيئاً ذهب ولن يعود.. عمر مات ولن يبعث .. زهرة شممت عبيرها وتلاشى العبير . هكذا الأيام التى تمضى .. عشر سنوات كاملة . كم فى عمرنا مثل هذه السنوات ؟ لا نعرف . ولكن أهم ما فى الأمر أنها سنوات حافلة فى تجاربها .. وأيضاً فى معاناتها ..

يوم أن كنت فى هذا المكان كانت الأحلام كثيرة وكبيرة بعضها تحقق .. وبعضها تساقط . كان الإحساس بالحياة أكثر أملاً .. والآن بدأت سحابات من اليأس تلوح فى الأفق البعيد المترامى .. كنت أكثر عناداً .. والآن تعلمت من قسوة الرياح وشدتها أن أترك بعض الزوابع تمضى حتى لا تأخذها معها رأسى .

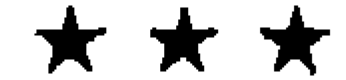
هذه هى مدينة ليجوس .. من بعيد لاح صديق قديم .. هو الشىء الوحيد الذى لم يتغير .. فى هذا المكان ودعنى من عشر سنوات وكانت بداية صداقتنا . والآن يستقبلنى رغم أن السنين تركت بقاياها على وجهه .. الطيب مكى .. كان موظفاً حكومياً يوم أن قابلته أول مرة .. والآن ترك الحكومة وعاش فى نيجيريا يعمل بالتجارة .. صداقة استطاعت أن تصمد أمام قسوة الزمن .. وهذا شىء عظيم فى أيامنا.

صافحت السيدة اللبنانية فى مطار لاجوس بعد أن تعرفت بزوجها

الشـاب اللبنـانى الذى جـاء يبـحث عن الأمن والأمـان .. كـثيـرون هؤلاء الذين يقضون حياتهم بحثاً عن الأمن .

وحملتنا السيارة ..

تغيرت مدينة لاجوس .. طريق علوى جديد يبلغ أكثر من ستين ميلا أقـاموه فى أقل من عـامين .. زحام المدينة أصبح شيئـاً قـاتلاً .. الأضواء تتراقص فى الشـوارع ، وكنت فى المرة الأولى لا أجد شيئـاً فى المدينة غير الظلام الدامس .. بقـايا من الجنود يقـفون على الأرصفة فى الشـوارع ، وهكذا الحروب دائماً تترك الضيـاع حيناً .. وجنوداً لا عـمل لهم أحياناً . وبدأت أجوب شوارع المدينة وأتحدث وأسمع ..



تساؤلات حائرة

بين المدنيين والعسكريين

عندما التقيت بالجنرال يعقوبو جوون رئيس نيجيريا السابق فى عام ٦٩ ، وكانت الحرب الأهلية توشك على الانتهاء سألته : هل حقيقة أنكم ستعيدون الحكم للمدنيين فى بلادكم وخاصة أن هناك اتهاماً يوجه للحكم العسكرى فى نيجيريا بأنه يحاول مد فترة الحرب الأهلية لأن فى ذلك الضمان الأول لبقائه فى الحكم ؟. يومها قال لى جوون : إننا سنعيد الحكم للمدنيين بعد انتهاء الحرب مباشرة .

ولم يصدق جوون فيما وعد به وبقى فى الحكم أكثر من ٦ سنوات بعد انتهاء الحرب حتى أطاح به الجيش فى يوليو من عام ٧٥ بقيادة الجنرال مورطالة محمد.

كان أول بيان أصدره قادة الانقلاب الجديد أنهم جاءوا من أجل إعادة الحكم للمدنيين وحددوا لذلك شهر أكتوبر من عام ٧٩ وقالوا فى بيانهم الأول أنهم أطاحوا بحكم الرئيس جوون لأنه لم يحاول إعادة الحكم للمدنيين كما وعد .

وسرعان ما بدأ النظام الجديد فى نيجيريا يقوم بعمليات تطهير واسعة وخاصة بعد انتشار عمليات الفساد بين حكام الولايات وكبار المسئولين فى الدولة خلال فترة الحرب ، وتم فصل أكثر من ٥ آلاف من كبار موظفى الدولة فى أقل من عام .

وبعد الانقلاب مباشرة تم تقسيم الولايات النيجيرية إلى ١٩ ولاية بدلاً من ١٢، وكان الهدف من ذلك تفتيت الولايات ومعها العصبيات التقليدية تجنباً لفكرة الانفصال ، كما أصبحت كل ولاية قائمة بذاتها من الناحية السياسية.

ولكن الخط المتشدد الذى اتخذه موطالة محمد زعيم الانقلاب لم يحظ بتأييد كافة الأجنحة مما ترتب عليه اغتياله فى ١٣ من فبراير من عام ٧٦ وتولى بعده الجنرال (أوبسانجو) السلطة . ومن البداية أعلن أوبسانجو التزامه بالخطوط العريضة التى قام من أجلها الجيش وأطاح بحكم الجنرال جوون وأكد الجيش مرة أخرى على عودة الحكم للمدنيين .

وحتى الآن فإن النوايا تدل على أن الأمر يمضى فى طريق

مرسوم، فقد تم تشكيل لجنة من ٥٠ شخصاً سميت لجنة الحكماء الخمسين تضم بعض قدامى السياسيين ورجال الفكر والقضاء والجامعات وقامت هذه اللجنة بوضع مسودة للدستور النيجيرى الذى سينقل على أساسه الحكم للمدنيين.

وبعد ذلك تقرر تشكيل جمعية تأسيسية تضم ٢٠٢ عضواً ، وتم تشكيلها بالانتخاب المباشر بحيث تمثل فيها جميع الولايات النيجيرية وتقوم هذه اللجنة بمناقشة مشروع الدستور لإقراره.

وبعد انتهاء مناقشة مشروع الدستور سوف يسمح للأحزاب السياسية بالعودة على أساس أن يكون من حق أى مواطن تشكيل حزب بشرط ألا يكون من الأحزاب القديمة وألا يقوم على أساس قبلى أو دينى وأن تضم اللجنة التأسيسية لكل حزب عناصر من جميع الولايات لضمان عدم قيام أحزاب دينية أو قبلية .

وحتى الآن مازال الدستور فى مرحلة النقاش .

وفى جانب آخر يتجه الرأى فى نيجيريا إلى تطبيق النظام الأمريكى فى الحكم المدنى من حيث انتخاب رئيس الدولة وحكام الولايات وتكوين برلمان من مجلسين أحدهما للشيوخ وآخر للنواب .

والسؤال الآن رغم كل هذه الإجراءات هل يصدق العسكريون هذه المرة ويعيدون الحكم للمدنيين . ذلك الوعد الذى مضى عليه الآن أكثر من ١٠ سنوات ولم يتحقق ؟.

من خلال التجربة الأفريقية يمكن أن يقال : إن ٩٠٪ من دول أفريقيا تعيش فى ظل نظم حكم عسكرية منذ استقلالها.

ولم يسلم نظام واحد من هذه الأنظمة الحكم؛ طواعية للمدنيين إلا فى غانا ، وفشلت التجربة بعد أيام وعاد الجيش للحكم مرة أخرى . وهناك تجارب أخرى تؤكد أن التجربة لم تنجح ولعل باكستان واحدة منها . بدأت بتولى بوتو .. وانتهت بإعدامه .

والحقيقة أن استقراء الأحداث يمكن أن يصل بنا إلى أحد احتمالين :

* الاحتمال الأول وفيه قدر من التفاؤل بأن يقوم العسكريون بتسليم الحكم للمدنيين فى الوقت الذى قطعوه على أنفسهم ، ويستند هذا الرأى إلى أن سبب الإطاحة بالرئيس النيجيرى السابق الجنرال جوون كان إخلاله بالوعد الذى قطعه على نفسه بإعادة الحكم للمدنيين يضاف إلى ذلك أن المجلس العسكرى الحاكم فى نيجيريا الآن خليط من عناصر يمكن أن يقال أنها متنافرة ، فالمجلس يضم عصبيات قبلية مختلفة الأمزجة والاتجاهات والميول ، ولكن الذى يجمعهم الآن هو الشعور بالخطر والخوف من النقلاب جديد يطيح بهم جميعاً ، وهنا يمكن أن يقال: إن الحل الوسط بالنسبة لهم أن يعيدوا الحكم للمدنيين فيظهروا أمام الشعب النيجيرى وكأنهم أوفوا بما وعدوا به ويخلصوا أنفسهم من ذلك الخطر الذى يهددهم وهو شبح انقلاب جديد يطيح بهم.

وبجانب هذا فإن التقارب الأمريكى مع نيجيريا يمكن أن يعكس مؤشراً هاماً حول مستقبل الحياة السياسية فى نيجيريا، وذلك لأسباب عديدة أهمها دور نيجيريا فى توريد البترول لأمريكا ثم إجراءات تحويل السلطة للمدنيين فى الفترة الأخيرة ، ويدخل فى ذلك زيارة الرئيس الأمريكى لنيجيريا ، ولعبة التوازن بين شرق القارة وغربها وذلك بالتأكيد سيلعب دوراً فى تحديد شكل الحياة السياسية فى نيجيريا مستقبلاً .

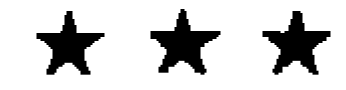
* ولكن الاحتمال الثانى حول هذا الموضوع يرى أن العسكريين لن يعيدوا الحكم للمدنيين مرة أخرى ، وحتى لو أعادوه فإن تجربة غانا سوف تتكرر ويأتى انقلاب جديد يعيد الأمور إلى ما كانت عليه بعد أيام من تولى المدنيين للحكم فيها .

ويظل السؤال معلقاً ، وخاصة أن مشاكل الاقتصاد النيجيرى الآن أصبحت تمثل ضغطاً كبيراً .. ارتفاع فى الأسعار وتوسع فى مشروعات التعمير ، تدهور فى المحاصيل الزراعية بسبب الجفاف، ولعل ذلك ما جعل الحكومة تتخذ مجموعة قرارات مع بداية الميزانية بينها زيادة الضرائب ، والحد من استيراد السلع الاستهلاكية ورفع الرسوم الجمركية كما حصلت نيجيريا على قرض من البنك الدولى قيمته ١٥٠٠ مليون دولار لاستكمال مشروعات التنمية التى لم تكتمل.

حقيقة أن نيجيريا حققت تقدماً اقتصادياً ملموساً وخاصة فى إعادة التعمير ومشروعات الخدمات فى السنوات الأخيرة، ولكن ما زال اشوط طويلاً، فهل يحاول العسكريون إلقاء هذه المشاكل أمام الحكم المدنى القادم لكى يواجه من البداية ظروفاً صعبة ويصبح أمام اختيار رهيب قد ينجح فيه وقد يفشل ؟.

المهم أن السؤال سيظل مطروحاً على الساحة حتى أكتوبر من العام القادم . هل يصدق العسكريون فى نيجيريا ويعيدون الحكم للمدنيين، أم الأمر سيظل وعداً حائراً لا يعرف للاستقرار سبيلاً . أم أن الوقت سوف يحمل معه تطورات أخرى فوق كل هذه الحسابات . . . ؟.

صدق العسكريون فى نيجيريا وتركوا السلطة للمدنيين فى نهاية عام ٧٩ .. قد يكون الحلم قد تأخر عشر سنوات كاملة .. ولكن المهم أن الحلم تحقق .



واختفت الدماء .. ولكن

أين تقف نيجيريا الآن بعد سنوات من نهاية الحرب الأهلية فيها ؟ وهل استطاعت أن تتجاوز فى هذه السنوات محنة الحرب ؟ تلك التجربة القاسية التى ضاع فيها الآلاف من المواطنين واستنزفت موارد نيجيريا الاقتصادية لفترة طويلة : وبعد ذلك كله هل عاد التوازن للحياة العادية للمواطن النيجيرى بعد هذه المأساة؟

كانت الزيارة الأولى التى قمت بها إلى نيجيريا فى نهاية الستينيات ومع نهاية الحرب الأهلية فيها . ويومها كانت المسرحية الدرامية القاسية تعيش أحداثها الأخيرة ، « أوجوكو » زعيم الإقليم المنشق « بيافرا » يهرب من بيته السرى فى مدينة « أوماهيا » على بعد ألف ميل من العاصمة ليجوس ويترك خلفه ملايين الضحايا سواء كانوا

أشلاء فى الطرقات فى مدنهم المهجورة أو حيارى فى الغابات، ويترك الرعيم المزيف مواطنيه يواجهون قدرهم ويدفعون ثمن طموحاته.

وكانت مشكلة بيافرا كما أطلق عليها فى ذلك الوقت واحدة من المآسى الإنسانية التى أثارت الرأى العام العالمى باختلاف اتجاهاته فصورها البعض على أنها حرب دينية يحاول فيها المسلمون إبادة المسيحيين وقال البعض الآخر : إنها صراع بين أطراف الجيش المختلفة. ولكن حقيقة انفصال « بيافرا » كانت ترجع أساساً لظروف المجتمع النيجيرى ونوازع الزعامة عند « أوجوكو » الذى اتخذ قرار الانفصال فى عام ٦٧.

وانتهت الحرب . واختفت الآن فى مدن بيافرا البيوت المهدمة، وعادت الحياة إلى طبيعتها مع الزمن، وعاد التلاميذ إلى مدارسهم والمرضى إلى مستشفياتهم.

فرق كبير تراه الآن بين نيجيريا الحرب ونيجيريا السلام، إنه ذلك الاختلاف ين إنسان يستخدم عقله فى الحوار وآخر يصر على استخدام بندقيته. وكانت نتيجة الحرب مدناً كاملة محطمة.. ومئات الألوف من الضحايا . وملايين من البشر اتخذوا الغابات سكناً.

ومع بداية تعمير ما خربته الحرب كانت الزيادة فى أسعار البترول التى وصلت بصادرات نيجيريا الآن من البترول إلى أكثر من ١٠ بلايين

دولار سنوياً ، وقد رصدت نيجيريا الجزء الأكبر منها من أجل إعادة التعمير، ولذلك وجدنا أن ٤٠٪ من استثمارات الخطة الخمسية للتنمية « من عام ١٩٧٥ إلى عام ١٩٨٠ » قد خصص لأعمال البناء والتشييد، رغم أن حجم الاستثمارات يبلغ ٦٤ بليون دولار فى ٤ سنوات ، وقد ساعدت على المضى فى إعادة بناء نيجيريا ما بعد الحرب أن معظم الشركات الأجنبية التى أنشئت فى السنوات الأخيرة فى نيجيريا قد تخصصت فى أعمال البناء والتشييد، وقد يكون ذلك قد أثر على مجالات العمل الأخرى وخاصة قطاعات الإنتاج ، إلا أن ذلك دفع بعملية البناء وخاصة الطرق والكبارى والمواصلات والمدارس والمستشفيات وهى من المرافق التى دمرت الحرب جزءاً كبيراً منها.

على السطح يبدو أن نيجيريا تجاوزت محنة الحرب ، فالطرق التى تهدمت أعيد بناؤها والمدن التى دمرت عاد النبض إليها من جديد.

ولكن السؤال الآن : ماذا تركت الحرب الأهلية فى نيجيرا؟ وهل يمكن أن يقال : إن هذه « الدراما » القاسية قد غابت إلى الأبد عن مسرح الحياة النيجيرية ؟.

للإجابة على هذا السؤال ينبغى أن ندرك أن المجتمع النيجيرى مجتمع له ظروفه الخاصة من حيث السكان وعددهم وظروفهم الدينية والعقائدية .

فى الشمال يتركز المسلمون البالغ عددهم الآن ٥٥ مليوناً، وفى الشرق توجد قبيلة « الأيبو » المسيحية والتى قامت من خلالها محاولة الانفصال فى الستينيات ومحاولة إقامة دولة بيافرا، وفى الجنوب توجد مجموعة قبائل الجنوب . ورغم قلة عددها إلا أنها أقوى الطوائف نفوذاً فى نيجيريا.

ومع الاتساع الرهيب فى مساحة نيجيريا بأقاليمها الشاسعة، ومع وجود الغابات وتخلف وسائل الاتصال يمكن أن يقال : إن أحلام الزعامة قد تراود آخرين غير « أوجوكو » زعيم بيافرا الهارب، يضاف إلى ذلك أن التركيب القبلى والدينى للطوآئف المختلفة فى نيجيريا يساعد على ذلك لأن الظروف الاقتصادية العامة فى نيجيريا تمر بمرحلة صعبة وخاصة مع موجة التضخم العالمى وأعباء إعادة البناء وذلك يمثل ضغطاً عنيفاً على المواطن النيجيرى العادى، وفى وقت تقف فيه طبقة غنية تملك الملايين من المسئولين السابقين ورجال القوات المسلحة والتجار والمقاولين الذين شاركوا فى عمليات التعمير واستفادوا من ظروف الحرب.

حقيقة أن الحكومة اتخذت مجموعة إجراءات لكى تتجنب بها مأساة الانشقاق مرة أخرى ، فالولايات النيجيرية الآن ترتبط ارتباطاً كبيراً بالحكومة الفيدرالية فى لاجوس، كما أن هناك ارتباطاً كبيراً بين الولايات بعضها وبعض ، وهو ارتباط « مصلحى » يقوم على جوانب

اقتصادية ومالية ، يضاف إلى ذلك أن قوات الجيش النيجيرى توجد الآن فى كل مكان فى نيجيريا وأكثر من هذا أن توزيع القوات المسلحة يأخذ شكلاً مسحوباً، ففى المناطق الإسلامية يوجد قبيلة « الأبيو » وفى المنطقة الشرقية حيث توجد قبيلة « الأبيو » توجد قوات من الجيش من جميع الطوائف والقبائل، وأكثر من هذا فإن إقليم « بيافرا » المنشق تحول إلى ٤ ولايات بدلاً من ولايتواحدة بهدف تفتيت إمكانياته فأصبح أجزاء متناثرة.

والهدف من كل هذا ألا يشعر إقليم من الأقاليم أنه أصبح قادراً على اتخاذ قرار بالانفصال كما حدث فى « بيافرا » فى الستينيات.

ورغم ذلك كله تبقى مجموعة مشاكل لاتحلها القرارات ، وتحتاج إلى عامل الزمن، فالذين ماتوا فى الحرب وعشرات الآلاف الذين شردوا ما زالت جراح الحرب تطاردهم ، ولعل ذلك يأخذوقتاً حتى يمكن إعادة العلاقات الإنسانية إلى ما كانت عليه .يضاف إلى ذلك أن مشكلة الأمن أصبحت الآن من المشاكل المهمة فى نيجيريا. هناك ملايين من المواطنين الذين حملوا السلاح أثناء الحرب الأهلية والجنود الذين تركوا الخدمة ولا يزاولون الآن عملاً. هؤلاء جميعاً أصبحوا مصدر خطر كبير على الأمن ولذلك نجد بعض عمليات السطو والنهب والسرقة .

والملاحظ أيضاً أن القبائل والطوائف المختلفة فى نيجيريا بدأت بعد الحرب تعيد تنظيم صفوفها والبحث عن مصالحها . المسلمون تحت

زعامة السلطان أبو بكر زعيم المسلمين فى نيجيريا بدأوا يجمعون شملهم ويتوسعون فى إنشاء مدارس تحفيظ القرآن الكريم ويطالبون بالمشاركة فى المناصب الرئيسية فى الدولة ويتخلصون من خلافاتهم الصغيرة من أجل توحيد كلمتهم والحصول على امتيازات لا تقل عما يعطى لغيرهم سواء فى التعليم أو الرعاية الصحية، حتى أنهم يطالبون بتطبيق الشريعة الإسلامية فى نيجيريا .

فى جانب آخر نجد قبيلة « الإيبو » فى الشرق يطالبون بنصيب أكبر من موارد البترول لأنه يخرج من أرضهم، كما أنهم يشاركون الآن مشاركة فعالة فى المناصب الرئيسية فى الدولة.

وفى الجنوب توجد أهم القبائل التى تقود الجهاز الإدارى فى نيجيريا وهى حريصة على تأكيد دورها واستمراره.

كل هذه العوامل تتفاعل تحت السطح فى المجتمع النيجيرى بتناقضاته العميقة ... حقيقة أن نظام الحكم يحاول بكل الوسائل ألا يعطى للتناقضات فرصة الظهور مرة أخرى كما حدث ذات يوم فى إقليم « بيافرا » ولكن إلى أى مدى يمكن أن ينجح فى ذلك ؟

* * *

الحقيقة أن انفصال بيافرا كان اختباراً كبيراً للقوات المسلحة النيجيرية .. فلقد كانت الحرب من الضراوة والقسوة بحيث استخدمت

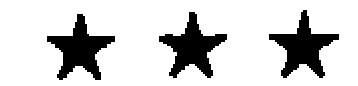
فيها كل الأساليب التى وصلت إلى حد الإبادة الشاملة من الجانبين . وكانت نهاية الدراما فى صالح الجيش النيجيرى الفيدرالى الذى استطاع أن يضرب بعنف محاولة الانفصال ولذلك خرج من الحرب ورصيدة أكبر سواء على المستوى الجماهيرى أو بالنسبة للولايات الأخرى التى قد تراودها أحلام الانفصال أو الزعامة كما حدث فى بيافرا . فالتجربة كانت نموذجاً أمام الآخرين ولعلهم تعلموا الحكمة من رأس الذئب الطائر.. فأصبح من الصعب تكرارها .ولكن الشيء المؤكد أن تفاعلات المجتمع النيجيرى وظروفه وتركيبته الاجتماعية بما فيها من تناقضات تصعب معها كل الحسابات مهما كانت دقتها . وقدر ما كان للجيش من حسنات فى حسم الموقف العسكرى فى نيجيريا وإعادة الإقليم المنشق فإن قوة الجيش أعطت الفرصة لقدر كبير من التجاوزات ، وبعدها بدأت ترتفع نغمة الحديث عن الحكم العسكرى وعودة المدنيين للحكم.

المهم أن الحياة العادية عادت إلى نيجيريا الآن وبدأت تعيد بناء اقتصادها واستطاعت فى فترة وجيزة أن تعبر محنتها وتعالج الكثير من مشاكلها. ورغم كل هذا فما زالت تحت السطح مشاكل أخرى عميقة لها جذورها الممتدة عبرة تاريخ نيجيريا الطويل وقبائلها العديدة ومساحتها الشاسعة وطوائفها ودياناتها وكل ما فيها من تناقضات . كل هذه الأشياء يصعب معها تحديد ملامح المستقبل .

ورغم كل ذلك فإن هناك رأياً يؤكد أن استقرار نيجيريا لن

يستمد وجوده إلا بتقليص دور الجيش فى الحياة السياسية وعودة المدنيين للحكم فى ظل أ حزاب سياسية وتجربة ديمقراطية .

وذلك هو الضمان الوحيد لأن تظهر كل المشاكل على السطح فى ظل الحوار الخلاق ، وتعالج بمنطق العقل بعيداً عن محاولات البحث عن وسائل أخرى بديلة تكون أداة لهذا الحوار.



إنهم يذبحون الأطفال

تعجبت كثيراً عندما سمعت أحد المسئولين فى نيجيرا وهو يقول « نحن فى أفريقيا نصنع من السحر كل شيء .. نقتل بالسحر.. ونأكل ونتزوج به » . وكان أكثر ما أثار دهشتى أن المسئول النيجيرى رجل تخرج فى إحدى جامعات أوربا وحصل على درجات علمية عالية . ولكن.. هكذا يعتقدون فى أفريقيا . إنهم يجعلون من السحر كل شيء فى حياتهم ابتداء بالطعام وانتهاء بالزواج.

والسحرة من الفئات التى تتمتع بامتيازات خاصة فى أفريقيا السوداء.. وتبدأ قرابين السحر والسحرة بالحيوانات والطيور وتنتهى بأخطر أنواع القرابين عندما يقف الساحر ويمسك بالسكين ويقطع رأس طفل صغير أو رجل كبير حسب ما تتطلب عملية السحر التى يقوم بها.

وقد يكون المطلوب رأس رجل أبيض أو أسود أو طفل فى سن معينة.. أو رأس فتاة أو صبى .. حسب ما هو مطلوب .

وللسحر كتب خاصة. قد تمارسه الزوجة بنفسها أو عن طريق السحرة للاحتفاظ بزوجها حتى لا يهرب من بين يديها . وبالسحر أيضاً يقتل الزوج عشيق زوجته.. أكثر من هذا أن الساحر يستطيع أن يخترق الأماكن ويرى ما بداخلها.

والتجربة عندهم هى السبيل إلى تأكيد الحقيقة.

يحضر الساحر « جردلا » صغيراً ويملؤه بالمياه النقية .. ضوء خافت ينساب حول المكان.. أنواع من البخور الأفريقى العتيق تختال رائحتها وتملأ الفضاء .

يبدأ الساحر بعد ذلك فى قراءة التعاويذ والتراتيل.. وفجأة يظهر شبح الشخص الذى يريده الساحر فوق سطح الماء .. ويطلب الساحر ويستجيب الشخص .. وقد يطلب الساحر منه أن يحضر فوراً ويفعل ذلك مهما كان بعيداً .. هكذا يعتقدون فى أفريقيا .

قد يكتفى الساحر بأن يحضر « روح » الشخص فقط .. وقد يطلب منه الحضور بجسده..

ويستخدم السحرة القرابين فى أعمال السحر . يذبحون الطيور

والحيوانات .. وأيضاً يذبحون الأطفال .. وهذه هي أخطر أنواع السحر في أفريقيا تلك التي يذبحون فيها قرابين من الأطفال الصغار..

ويسرق الساحر الطفل الصغير من أحد الشوارع .. ويأخذه إلى حيث يريد .. ويذبحه .. وقد يكتب من دمه حجاباً.. أو يجعل من رأسة أو أذنه أو قدمه ذلك الحجاب حسب ما يتطلب الأمر .. ولكل نوع من أنواع السحر مطالب خاصة قديوضع في الحجاب جزء من جسم الطفل أو كمية من دمه .. قال لي أحد السحرة الأفارقة : عندما أقوم بتحضير روح إنسان حي إلى المكان الذي أريده فإنه يشعر بصداع قاتل ..وقد جربت ذلك .. أكثر من هذا أنني أستطيع أن أقتله في الحال . وأسأل الساحر : وكيف يتم ذلك .؟

قال : يظهر الشخص الذي أطلبه في مياه الجرل الصغير بمجرد انتهائي من قراءة التعاويذ .. أنتظر قليلاً .. تظهر صورته واضحة تماماً أمامي على سطح الماء .. أقرأ مجموعة تعاويذ أخرى .. أطلق سهماً إلى قلب صورة الشخص على وجه الماء .. يموت في الحال .. وفي أي مكان يوجد فيه ..

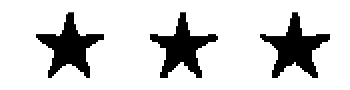
وقال الساحر أنه جرب هذه الطريقة بنفسه أكثر من مرة، بل إنه قتل عشيق أحدى زوجاته بنفس الطريقة.

وفي أفريقيا أنواع كثيرة للسحر .. وآلاف من الكتب المتوارثة والتقاليد التي حملتها الأجيال جيلاً بعد جيل منذ آلوف السنين .

وهناك السحر « الهجومى » كما أن هناك نوع آخر هو « السحر الدفاعى » .. مثل أساليب الحروب تماماً .. قد تلجأ إلى حماية نفسك بالسحر من أعمال السحرة الآخرين وهذا هو السحر الدفاعى الذى تدافع به عن نفسك .

وقد تلجأ إلى السحر لإيقاع الضرر بمن تريد .. وهذا هو السحر الهجومى .. والخطورة فى هذا النوع أن السحر يرتد لصاحبه إذا كان الطرف الآخر محصناً بالتعاويذ والأحجبة ، ولذلك يلجأ الساحر عادة إلى اختبار الشخص الذى أمامه وهل هو محصن أم لا قبل أن يبدأ عمله.

وينتشر السحر فى كل مكان .. وفى كل بيت تجد له كتباً ومخطوطات .. ويحمل الرجل التعاويذ والأحجبة التى تقيه متاعب الحياة.. واحدة لجلب الرزق .. وأخرى ... لمنع الحسد وثالثة تمنع عنه ضرر الآخرين .. المهم أنهم يعتقدون فى كل ذلك بإيمان لا يتسرب الشك إليه.



بسبب أغنية تزوج المطرب

٢٧ فتاة فى ليلة واحدة !!

(« زومبى » لا ينام إلا إن أمرته أن ينام

ولا يأكل إلا إذا أمرته أن يأكل

ولا ينصرف إلا إذا أمرته أن ينصرف

يجرى إذا أمرته أن يجرى ..

ليست له فرامل .. وليس له « إكسدام »

لا يستطيع أن يفكر بنفسه

ولذلك يجب أن نفكر له

إن زومبى .. هو الرجل العسكرى ..

وهكذا يكون العسكريون ..

إنهم يعبدون الأوامر ..

ولذلك يجب أن نفكر لهم).

كلمات هذه الأغنية كانت سبباً فى زواج صاحبها من ٢٧ فاة فى ليلة واحدة .. قصة تحدثت عنها الصحافة العالمية وشغلت الرأى العام فى غرب أفريقيا فترة طويلة .

وقف المطرب النيجيرى « فيلا » يقدم أمام الألوف فى نيجيريا أغنية جديدة اسمها « زومبى » هاجم فيها الحكم العسكرى فى نيجيريا..

وقامت الدنيا . وتحرك المسئولون وهاجم البوليس بيت المطرب المسكين وتم القبض عيه وصودرت أسطوانات الأغنية فى المحلات التجارية.. واحترق بيت المطرب .. وقررت السلطات محاكمته بدعوى أن يستخدم « الكورس » الذى يرافقه فى أغانيه وهو مكون من ٢٧ فاة فى أعمال مخلة بالشرف ويدير لذلك بيتاً للدعارة.

وأمام هذا لم يجد « فيلا » حلا لهذه المشكلة غير أن يتزوج فى يوم واحد ٢٧ فتاة على الطريقة الأفريقية وعقد قرانه على فتيات الكورس جميعهن.

ولم تجد السلطات الحاكمة فى نيجيريا تهمة أخرى تواجه بها المطرب . أكثر من هذا ، وتحت ضغط الجماهير سمحت السلطات النيجيرية للمطرب أن يغنى مرة أخرى فى الحفلات العامة بشرط ألا يغنى أغنية « زومبى » . وحاول « فيلا » أن يقدم إحدى الحفلات في غانا ولكن الحكومة العسكرية فيها أعادته على نفس الطائرة التى حملته إلى « أكرا » ولم تسمح له بالدخول .. وما زال فيلا يغرد فى غرب أفريقيا رغم عواصف الحكام العسكريين وسطوتهم .

وعلى الطريقة الأفريقية تستطيع أن تتزوج أى عدد من النساء.. وتستطيع الزوجة أن تترك زوجها فى الوقت الذى تشاء .. ويستطيع الزوج أن يتركها عندما يريد .. لا قيود فى الحياة الزوجية على الطريقة الأفريقية.

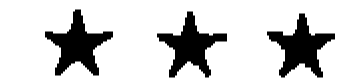
ولكن المشكلة أن الزواج بين المسلمين والمسيحيين يرتبط بقواعد تنظمها الأديان ولهذا يفضل الأفريقيون الزواج على طريقتهم حتى ولو كانت لهم دياناتهم.

وفى جنوب القارة السوداء لا يعرفون شيئاً اسمه « البكارة » فيما عدا بعض المسلمين . ولذلك نجد أن المعاشرة الزوجية قبل الزواج شىء طبيعى .. والمرأة الأفريقية متحررة جداً . وهى لا تتزوج الرجل إلا إذا أنجبت منه .. خوفاً من العقم وعدم الإنجاب ، ويعاشر الرجل المرأة قبل الزواج بدون عقد .. ويعقد قرانه عليها إذا أنجب منها .

ويتزوج المسيحيون والمسلمون فى نيجيريا طبقاً للشرائع السماوية.. وإن كان البعض منهم يتزوج على الطريقتين : الأفريقية حيث لا قيود .. والدين الذى يعتنقه حيث يلتزم بتعاليمه .

والمرأة فى أفريقيا لا تتسمك كثيراً بأبنائها وتعتبرهم ملكاً للرجل..

وفى أفريقيا لا قيود على الزواج بين أبناء الديانات المختلفة.. يتزوج المسيحى من المسلمة ويتزوج المسلم من المسيحية .. ولذلك تجد الأب مسلماً والابن مسيحياً والابنة من غير دين . ولا علاقة للدين بالعلاقات الأسرية . لأن الدين سلوك خاص جداً ..ولكن الابن يحترم أباه كثيراً .. يركع عندما يصافحه .. ولا يدخن أمامه .. ولا يأكل معه.. فالأب ملك متوج فى أفريقيا له قدسيته .



الهند .. بلد الخيال

مضت الآن ٦ سنوات كاملة على رحلة أفريقيا الأولى زرت بعدها بلاداً كثيرة فى أوربا والدول العربية . ألمانيا الغربية وإيطاليا وإنجلترا وهولندا وبلجيكا.. بل إننى زرت بلاداً منها أكثر من مرة .. وزرت فى هذه السنوات أيضاً سوريا ولبنان والسودان وليبيا والكويت وغيرها من الدول العربية .

كنا نسمع كثيراً عن أساطير الهند القديمة. والشعر والجمال.. والسحر والبخور وطاغور وتاج محل .. وكشمير .. أسماء كثيرة كنا نراها سطوراً فى كتب أو صوراً فى جرائد .. ولكن الرؤية تختلف كثيراً عن الكتب . وكان شهر فبراير قد حملنى فى عام ١٩٦٩ إلى أفريقيا وجاء شهر يناير من عام ١٩٧٥ لكى يحملنى فى رحلة طويلة إلى الهند تجولت فيها خلال ٤٠ يوماً بين ربوع الهند وعالمها الفسيح .

كان هناك فرق كبير بين رحلتي في أفريقيا في الغرب .. ورحلتي في الهند في الشرق .. لم أعد أهاب السفر كما كنت بل إنني تعودت عليه .. وكنت أعتقد أن هناك تشابهاً بين الهند وأفريقيا .. أو على الأقل إن التشابه بينهما أكبر من التشابه بين أفريقيا والهند من ناحية ودول أوربا من ناحية أخرى . شيء واحد تغير .. لقد أصبحت زوجاً .. وأباً في هذه السنوات .. وكان من الصعب أن أذهب إلى الهند وأقضى فيها ذلك الوقت الذى قضيته في أفريقيا عندما عشت فيها شهور طويلة .

مطار دلهى متواضع للغاية .. لا تجد فيه « بهرجة » مطارات أوربا ،وتشعر فيه ببساطة الناس .

قبل أن ندخل صالة الجمرك في مطار دلهى كان أمامى شاب أمريكى أخذ دوره في الطابور. وعندما فتح حقائبه أمام موظف الجمرك صاح الموظف في وجهه ما هذا ؟ فقال : « مجلات وجرائد » ولمحت من بعيد مجموعة من مجلة « البلاى بوى » أكثر مجلات الجنس انتشاراً في العالم . وقال موظف الجمرك للشاب الأمريكى « ممنوع دخول هذه المجلات إلى الهند » فقال الشاب الأمريكى : وما هو الحل ؟ فأجاب الموظف : لابد من مصادرتها.

وتركها الشاب ومضى في طريقة حاملاً حقائبه .

وجاء دورى لكى يفتح موظف الجمارك حقائبى .. ولكننى وجدته مشغولاً بإخفاء المجلات في حقيبته الخاصة !! .

نوع واحد من السيارات تشاهدة فى مدينة دلهى إنها السيارة الهندية « امباسدور » التى تنتجها الهند . واستيراد السيارات ممنوع فى الهند . والسيارة من مظاهر الثراء ولا يمتلكها إلا القادرون .

لم أنس ذلك الشاب الهندى النحيف الأسمر الذى رافقنا طوال الرحلة « مستر بوش » . قابلنا بترحيب شديد .. وعنده أحلام كثيرة أن يزور مصر وأن يصبح فى يوم من الأيام رجلاً ثرياً . وسألنى : هل الثراء فى مصر شىء ميسور . فقلت له .. الثراء فى كل بلاد العالم له طرق متشابهة وإن اختلفت بعض تفاصيلها . قال ولكن من الصعب أن تصبح ثرياً فى الهند لأن المنافسة بين ٦٠٠ مليون إنسان تختلف كثيراً عن المنافسة بين مليون فقط. كلما زاد عدد الناس كلماقل عدد افرص أمام الإنسان .. ألا ترى أن الإنسان تحكمه ظروفه .

فى كل مدينة فى الهند تشم عبيراً مختلفاً .. لأن لكل مدينة مذاقها الخاص .. والمرأة الهندية رقيقة .. رومانسية .. تقدس الرجل.. ومن أجمل ما ترى فى الهند لحظات اللقاء .. ربما يكون اللقاء بين فتاة وحبيبها أو ابنه ووالدهها أو أم وولدها .. ليست من عاداتهم القبلات والأحضان مثلنا. ولكن الفتاة تلقى برأسها فى صدر حبيبها أو والدها. وتتكرر الصورة فى مطارات الهند ومحطات القطارات كلما التقى حبيبان أو جمع الشمل بينهما .. يلقى كل منهما رأسه على صدر الآخر.

وهكذا الحب دائماً نلقى متاعبنا وأحزاننا بعيداً عندما نجد أنفسنا مع من تحب .

* * *

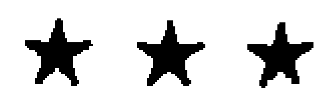
الزواج فى الهند

سألت زوجة هندية عن الزواج فى الهند .. قالت : يتم عادة فى سن ١٨ بالنسبة للفتاة و ٢١ بالنسبة للشاب . والحياة فى الهند مكلفة. لكى تعيش فى شقة صغيرة مكونه من حجرتين فإنك تدفع أكثر من ٢٥٠ دولاراً إيجاراً شهرياً. وفى الهند - تعطى الزوجة بعض المال لزوجها قبل إتمام الزفاف . وكلما كانت الزوجة غنية كلما كان حظ الزوج أفضل فى الحصول على المال . ولكن الزوج يشترى الحلى والمجوهرات لزوجته وهى بدورها تشترى كل ما يحتاجه بيت الزوجية .

والزوجة الهندية مطيعة للغاية ولا تشارك كثيراً فى الأعمال العامة .. والسبب فى ذلك أن عدد السكان فى الهند لا يترك فرصاً لعمل المرأة. فى ليلة الزفاف ترتدى العروس الملابس الحمراء . وتختلف

مظاهر الاحتفال بالزواج فى المدن الهندية. لكل مدينة طباعها . فى بومباى حيث الثراء الهندى الرهيب تقام حفلات الزواج فى الفنادق الكبرى والنوادى على النظام الأوربى . وفى حيدر أباد مثلاً يركب العريس حصاناً أبيضاً ويرتدى ملابس مزركشة على الطريقة الهندية وتسير أمامه فرقة موسيقية ترتدى الملابس الحمراء .. ويزف العريس بالطريقة « البلدى »

وتتدخل الحكومة من وقت لآخر للحد من زيادة السكان وتحديد النسل حيث تمنع غير المسلم من الزواج من أكثر من واحدة يضاف إلى ذلك أن شركات القطاع الخاص فى الهند تهدد بالفصل كل من يتزوج أكثر من واحدة .



تاج محل .. أسطورة الحب

قالت له : « هل لى أن أطلب منك شيئاً قبل أن أتركك وأمضى فى رحلة النهاية .. إننى سأموت الآن .. ولى عندك رجاء واحد .. ألا تتزوج امرأة أخرى بعد ى.. وأن تبنى لى مقبرة تتحدث الدنيا عنها . لقد تحملت معك مرارة الأيام قبل حلاوتها .. وعشت معك أجمل أيام عمرى ، وأعتقد أنها كانت أجمل أيام عمرك .. ولعلك تحقق ما طلبت منك ».

وأغمضت « ممتاز محل » عينيها فى رحلة النهاية .. وزوجها الأمبراطور والملك وزعيم المغول فى الهند يلقى رأسه على صدرها وهو يبكى .

ولاشك أن قصة الحب التى كان من ثمارها « تاج محل » المقبرة التى تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع واستطاع شاه جهان بها أن يخلد زوجته كما لم تخلد إنسانه فى تاريخ العشق قد تفوق بذلك على شكسبير وغيره من الشعراء الذين خلدوا قصص الحب خلال أشعارهم.

وللقصة بداية ..

فى عام ١٦١٢ كان اللقاء الأول بين شاه جهان ومعناها « ملك العالم » ابن إمبراطور الهند العملاق المسلم « أكبر » وممتاز محل. كان الأمير يسير فى مدينة دلهى وفى أحد محلات الملابس الهندية استوقفه جمال فتاة صغيرة عمرها لم يتجاوز ١٩ عاماً . وكانت الفتاة ترغب فى شراء « فستان » وشعر أنها غير قادرة على دفع ثمن فما كان منه إلا أن تطوع ودفع ثمنه ولم تكن ممتاز محل تعرف أن هذا الفستان سيكون بداية لأشياء أخرى أكثر أهمية . وتزوجها شاه جهان فى نفس السنة.. استمر حفل زواجها شهراً كاملاً فى كل ربوع الهند .

واستطاعت ممتاز محل « ومعناها زينة القصر » أن تملك تماماً قلب زوجها الإمبراطور الذى تولى الحكم بعد أبيه .. واتسعت له آمال الدنيا كلها .. وكانت ممتاز تقف وراء زوجها فى رحلة الحياة بكل الثقة والإخلاص.

ويصف الكتاب والمؤرخون ممتاز محل بأنها كانت تمتاز بصفاء روحى عجيب وشفافية مرهفة . وأنوثة طاغية . وجمال فى الروح يفوق

كل مظاهر الجمال الشكلى . وذكاء حاد .. وقلب عطوف .. واحترام واعتزاز شديد بنفسها . وكان جمال روحها يغلب على جمال شكلها .

ويقول الكاتب « مازيومدار » أنها كانت تمثل بالنسبة لشاه جهان الصديقة والمستشارة والزوجة .. كانت لها كلمتها فى نظام الحكم والسياسة . وكانت تتدخل فى أمور الدولة كيفما شاءت بآرائها وحكمتها ونصائحها لزوجها .

وطوال رحلة الحياة بينهما أحب شاه جهان زوجته بحيث إنها لم تكن مجرد زوجة . كانت رفيقته إذا سافر خارج الهند ، فلا يسافر أبداً بدونها . وكانت بجواره فى كل أعماله الخاصة بنظام الحكم وسياسة الدولة . وكانت حبيبة قلبه التى لا ينافسها فيه منافس مهما كانت قيمته .

وعاشت معه ١٩ عاماً ..أنجبت فيها ١٣ طفلاً ملأوا قصر الإمبراطور فى مدينة أجرا على بعد ٢٠٠ ميل من دلهى.

وذات ليلة سافر شاه جهان إمبراطور الهند إلى إحدى الولايات المجاورة لولاية أجرا .

ومضت الليلة الأولى فى الرحلة ، وفى الليلة الثانية أحست الزوجة بآلام الوضع .. وكانت فى طفلها الرابع عشر..

وارتفع صراخ الطفلة الوليدة .. ونظرت الأم إليها وهى تبتسم..

وطلبت من وصيفتها أن تحضر الإمبراطور فوراً إليها .. ودخل الإمبراطور مضطرباً .. وطلبت ممتاز محل من الجالسين حولها أن يتركوها بعض الوقت مع زوجها على انفراد .. واقترب منها الملك فقالت له : إننى أشعر بالنهاية .. سوف أموت الآن فقال لها : لا تقولى هذا يا ممتاز أنت بخير .. فقالت : هل لى أن أطلب منك شيئاً ؟ قال : لك ما شئت .. قالت : لقد عشت معك حياتى بحلوها ومرها .. وعشنا معاً أيامنا بسعادتها وشقائها .. وجعلك الله إمبراطوراً عظيماً وملكاً تحكم بلاداً كثيرة ، وعندى شيئان أريد أن أطلبها منك .. ألا تتزوج امرأة أخرى بعدى ، وتظل وفياً للحب الذى جمعنا يوماً. وأن تبنى له مقبرة تخلد بها اسمى .

وتساقطت الدموع من عين شاه جهان وهو يهمس فى أذن زوجته الحبيبة ألا تدخل قلبه امرأة أخرى بعدها . وأن يبنى لها قبراً يخلدها على مر الزمن وأن يكون أجمل مقابر الدنيا وماتت الزوجة والحبيبة..

وعاد شاه جهان إلى أجرا بقلبه الحزين ورفات زوجته الراحلة. وصار البيت خالياً من حبيبته وأميرة قصره وابتعد الإمبراطور عن الناس .. وعاش وحيداً لا يفكر إلا ذكرى زوجته وكيف يبنى لها مقبرة تخلدها.

كان شاه جهان واحداً من أغنى أغنياء الدنيا فى ذلك الوقت

ولذلك جمع حوله أكبر مهندسى العمارة فى العالم شرقاً وغرباً ومعهم رسوم لكل المبانى الرئيسية الشهيرة فى العالم .

كل هذه الخواطر عبرت فى ذهنى والسيارة تحملنى إلى مدينة أجرا لكى نزورتاج محل ، وتتزاحم العربات والسيارات واللوكاندات فى مدينة أجرا والناس يتوافدون من كل بلاد الدنيا لكى يزوروا أشهر مقبره.. فى العالم .

ومن بعيد يلوح تاج محل قطعة فنية رائعة تراها من بعيد كأنها قطعة من اللؤلؤ تتراقص على صدر حسناء . وما أجمل أشعة الشمس الغاربة وهى تنعكس على مآذن المقبرة والحقول الخضراء تحيطها . ولعل ذلك كان السبب الأساسى فى أن حكومة الهند كانت تغطى تاج محل تماماً فى الليل أثناء حربها مع باكستان خوفاً من أن يتعرض لقصف الطيران الباكستانى ، لأن تاج محل تنبعث منه أطياف وأضواء مختلفة تحت أشعة القمر فيبدو وكأنه قبة مضيئة .

وفى مدخل الضريح يقرءون القرآن لأن سكان أجرا معظمهم من المسلمين . وفى أوقات الصلاة ينطلق الآذان من مآذن تاج محل السبعة. وقد صمم المبنى التاريخى على أساس أن يتردد صدى الصوت داخله ٧ مرات تختلف فى رجات ارتفاعها .. وعندما يقول المؤذن : اللّه أكبر فإنك تسمعها ٧ مرات . وأمام تاج محل حديقة ضخمة ومدخل كبير على جانبه الأيمن لوحة رخامية كبيرة كتب عليها تاريخ إنشاء المقبرة

وعدد العمال الذين شاركوا فى بنائها وأن ذلك استغرق ٢٢ عاماً اعتباراً من عام ١٦٣٢.

وتاج محل يعتبر أجمل نماذج العمارة الإسلامية فى العالم.

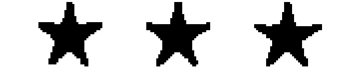
ولقد بنى تاج محل من المرمر الأبيض والأصداف النادرة . وتحت القبة الرئيسية يوجد قبر الزوجة وبجوارها قبر زوجها . وتتسرب الأضواء من خلف الزجاج الملون بحيث صمم على أساس ينعكس الضوء ويتركز على المقبرة . والمقبرتان من المرمر الأبيض المنقوش بمجموعة من الألوان فيها الأحمر والأخضر والبنى .. وأرضى المقبرة من الرخام الأملس الجميل.. وجدرانها محلاة بالأخشاب النادرة ونقشت الآيات القرآنية على جدران القبة وعلى المقبرتين . ويرتفع قبر شاه جهان قليلاً عن قبر زوجته .. ويتدلى على المقبرتين قنديل كبير يعكس الأضواء أثناء الحكم العثمانى وقد أرسل شاه جهان مندوباً عنه إلى مصر واختار هذا القنديل بالذات بناء على موصافات المهندس الذى صمم الضريح ويدعى «عيسى» ، لأنه كان يعتقد أن مصر هى أفضل مكان فى العالم لصناعة القناديل . فقد قالوا له : إن مصر هى موطن القناديل الجميلة. وعاش شاه جهان بعد زوجته وفيا لذكراها كما كان وفياً فى عهده معها بأن يبنى لها قبراً يخلدها على مر السنين .

والشىء الغريب أن شاه جهان بدأ حكمه باغتيال جميع إخوته

حتى يصبح له الحكم وحده . ومرت السنين وجاء أحد أبنائه واستولى على الحكم من والده واستطاع أن يلقى بوالده « شاه جهان » فى السجن تسع سنوات كاملة لم يزر والده فيها مرة واحده .. وقضى شاه جهان أيامه الأخيرة فى « حصن أجرا » جالساً معظم أيامه فى « برج الياسمين » حيث كانت ممتاز محل ترقد فى قبرها قريباً منه ويستطيع أن يرى قبرها كل يوم .

وفى يوم ٢٢ من يناير من عام ١٦٦٦ كان شاه جهان ينام على صدر ابنته الصغرى عندما أحس بالنهاية . فطلب من ابنته وهو يلفظ أنفاسه أن ترفع رأسه إلى أعلى لكى يرى قبر ممتاز محل قبل أن يرحل .

ومات شاه جهان وكان قد بلغ من العمر ٧٥ عاماً قضى منها ٣٦ عاماً بعد رحيل ممتاز محل التى عاش وفياً لذكراها .. ولعل من أجمل الكلمات التى قيلت عن تاج محل أن ممثلة فرنسية شهيرة زارت الهند يوماً وعندما سألها أحد الصحفيين عن رأيها فى تاج محل قالت « لو كنت أعلم أن زوجى يمكن أن يقيم لى قبراً مثل تاج محل فأنا على استعداد أن أموت الآن ».



٦٠٠ مليون إنسان
بين رغيف العيش والقنبلة الذرية

تساؤلات كثيرة تطاردك وأنت تسير فى شوارع المدن الرئيسية فى الهند وسط عشرات الألوف من الناس . كيف يمكن مواجهة الأعباء الاقتصادية لمثل هذا العدد من الناس ؟ كيف يمكن توفير رغيف العيش لأكثر من ٦٠٠ مليون إنسان ؟.

قلت إننى ذهبت إلى الهند لكى أكتب عن الاقتصاد.. ولعل أول سؤال يمكن أن يدور فى ذهن الإنسان هو : أين وصلت تجربة الهند الاقتصادية فى ظل هذه الأعباء ؟.

ولا شك أن للهند مشاكلها الاقتصادية كدولة نامية .فرضت عليها ظروف التنمية أعباء كثيرة لسنوات عديدة . يضاف إلى ذلك أن

مشكلة الزيادة السكانية تعتبر من أبرز المشاكل الاقتصادية فى الهند لأن عدد السكان يزيد سنوياً حوالى ١٢ مليون نسمة. أى أن الزيادة فى السكان تبلغ مليون إنسان كل شهر . وبجانب هذا كله فإن العقاب تؤثر فى كثير من الأحيان فى الإنتاج الزراعى وتتسبب فى تلف المحاصيل وخاصة أن ٨٠٪ من الأراضى الزراعية فى الهند تعتمد على مياه الأمطار . ويؤدى ذلك بطبيعة الحال إلى ارتباك عمل محطات الطاقة الكهربائية العادية التى تعتمد عليها الصناعة الهندية ويبلغ عددها ٥٠٠٠ محطة. ومن مشاكل الهند أيضاً أنها تستورد ٧٠٪ من احتياجاتها من البترول . كما أنها تستورد كميات كبيرة من القمح تصل إلى ٦ ملايين طن سنوياً لتوفير احتياجات السكان من الغذاء. وبالرغم من هذه المشاكل فلقد حققت التجربة الهندية نتائج طيبة منذ استقلالها فى عام ١٩٤٩.

فى ربع قرن من الزمان تضاعف الإنتاج الصناعى للهند ثلاث مرات . وتضاعف توليد الكهرباء ١٠ مرات .. وزاد إنتاج الآلات والمعدات الصناعية ١٥ ضعفاً .

وما زالت الزراعة دعامة الاقتصاد الهندى. ففى الهند أكبر رقعة زراعية مروية فى العالم ، وهى تعطى أكبر محصول من الحبوب الغذائية والبقول والحبوب الزيتية والسكر والتبغ.

ويبلغ إنتاج الهند من القمح سنوياً أكثر من ٢٧ مليون طن رغم أن الأرز يعتبر السلعة الغذائية الأولى .

وقد أصبحت الصادرات الصناعية تمثل مورداً أساسياً من موارد الهند الاقتصادية فى السنوات الأخيرة .. حتى صادرات الهند من السلع الغذائية وحدها تعادل قيمة صادراتها من الشاى وهو أقدم منتجاهاتها تصديراً . وتصدر الهند أيضاً المنسوجات والمنصنوعات اليدوية والجوت.. كما تغطى معظم احتياجاتها من الآلات والمعدات والسيارات والجرارات والأوتوبيسات .

ولكن سياسة الهند تقوم على تشجيع الإنتاج المحلى ولعل ذلك استمراراً لدعوى غاندى .. فالسيارة الهندية « أمباسدور » تجوب الشوارع ولا تجد غيرها .. والمنسوجات الهندية تحتل المكانة الأولى لدى الشعب الهندى. والاستيراد من الخارج محدود ولا يشمل السلع التى تنتجها الهند .. وتنتشر المصانع الآن فى كل موقع على الساحة الهندية الواسعة ، وتتطور الصناعة فى الهند بصورة تدعو للإعجاب .. ولا فرق بين القطاع العام والقطاع الخاص . الكل يعمل فى حرية كاملة .. قطاع عام قوى جداً .. وقطاع خاص على نفس الدرجة من القوة .. ومن البداية لم تحاول الهند إيجاد نوع من التفرقة فى المعاملة ما دام الكل يعمل من أجل بناء الهند .. والقطاع العام يحصل على ٦٠٪ من حجم الاستثمارات بينما يقوم القطاع الخاص بنسبة ٤٠٪.

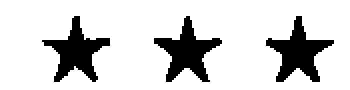
والقطاع الخاص فى الهند يدفع الضرائب وتصل إلى ٧٧٪ كحد أقصى من صافى الربح ، وليس فى الهند حد أقصى للربح ، لكل إنسان الحق فى أن يربح ما يشاء ما دام يدفع الضرائب وتجد القطاع الخاص فى الهند يساهم فى المشروعات الإنتاجية بدرجات متفاوته .. ابتداء بإنتاج الأسمنت وانتهاء بالسيارات .. وهناك تعاون كبير بين الحكومة والقطاع الخاص فى المشروعات الضخمة ومنها على سبيل المثال شركات الطيران وإنتاج السيارات والجرارات والحديد والصلب والورق .. كل المشروعات الكبرى فى الهند مشروعات مشتركة بين الحكومة والقطاع الخاص الهندى وبعض رؤوس الأموال الأجنبية .

وتشترط الحكومة بالنسبة للاستثمارات الأجنبية أن تساهم فيها بنسبة ٥١٪ وأن يساهم الأجنبى بنسبة ٤٩٪ فقط وتعفى الأجانب من الضرائب فى السنوات الأولى من المشروع ، ويكون من حق المستثمر تحويل أرباحه للخارج فى أى وقت يشاء . والحكومة الهندية تعطى لمشروعات الطاع العام الخاسرة فرصة زمنية محدودة لا تزيد على ٣ سنوات لكى يعيد توازنه . وإذا استمر فى الخسارة يتقرر إغلاقه.

ومن الأشياء الواضحة أن ٦٠٪ من الإنتاج الصناعى فى الهند يعتمد على مواد محلية .. ومنها الأسمنت والسكر والحديد والطاقة والورق . وفى الهند أكبر عدد من المهندسين فى العالم .

واستطاعت الهند أن تتغلب على كثير من مشاكلها . ولعل أهمها مشكلة المواصلات وإن كانت مشاكل النقل ما زالت قائمة.. وخلال جولتى فى الهند زرت محطات توليد الطاقة النووية .. فى بومباى .. ومدراس .. وهناك ٣ برامج لاستخدام الذرة فى تطوير أساليب الإنتاج والتكنولوجيا الحديثة .. وفى يوم ١٨ مايو من عام ٧٤ فجرت الهند قنبلتها الذرية الأولى فى صحراء « راجستان » القريبة على عمق مائة متر من سطح الأرض . والهند تنتج ٥٠٠ ألف طن بلوتونيوم و ١٠٠٠٠ طن يورانيوم سنوياً .. وبرنامج الطاقة النووية فى الهند يعتمد أساساً على البلوتونيوم لأن الهند لا تستورد المواد اللازمة للطاقة النووية .. وبرنامج الطاقة النووية فى الهند يعتمد أيضاً على الإمكانيات المحلية ، ويتم بالتعاون مع كندا وأمريكا .. وزرت فى مدراس محطة الطاقة النووية .. وقابلت علماء الذرة الهنود .. وشرحو لى كيفية عمل محطات الطاقة النووية فى الهند . وأخذ أحد العلماء يشرح لى كيفية استخراج اليورانيوم واحتياجات الهند منه لكى تستكمل برنامج الطاقة فيها لتوفير الكهرباء للنهوض بالصناعة .. ويومها قال أحد العلماء : « إن الذرة تستخدم فى صنع القنابل الذرية » ولكنها أيضاً تستخدم فى شق الطرق والقنوات والأنفاق وأضاف العالم الهندى إننى أحلم بيوم أرى فيه فى كل مدينة هندية محطة نووية للكهرباء . لأن محطات الكهرباء العادية فى بلادنا تعتمد على الأمطار ويؤثر ذلك فى أحيان كثيرة على إنتاجنا الصناعى .

وتركت محطة الطاقة النووية فى مدراس وأنا فى غاية الإعجاب بشعب استطاع أن يصنع القنبلة الذرية .. ويوفر رغيف العيش لأكثر من ٦٠٠ مليون إنسان دون معتقلات ولا سجون ولا حجر على حريات الإنسان !!.



بومباى ..مدينة الأغنياء

نحن الآن فى بومباى . أكثر مدن الهند ثراء والتصاقاً بالغرب ما أكثر التشابه بينها وبين مدينة الإسكندرية . الشاطىء الممتد بلونه الأزرق الجميل والعمارات الشاهقة . حتى ألوان سيارات التاكسى ذات اللونين الأسود والأصفر، شيء واحدتراه فى بومباى وتراه فى الإسكندرية. ترى فى بومباى أكثر من ٥٠ ناطحة سحاب أصغر واحدة فيها ترتفع ٤٠ طابقاً !.

وبومباى مدينة الأغنياء فى الهند . مركز كبير للتجارة ورجال الأعمال . ميناء ضخم ، كما أنها تعتبر أهم مراكز السينما الهندية .

وفى فندق « تاج محل » أكبر فنادق الهند تشعر برائحة التاريخ. كل شيء فى الفندق على الطراز الأوربى إلا حجراته.. سرير من الخشب

المنقوش بألوان زاهية على الطراز الهندى والمقعد والستائر والإضاءة كلها توحى بجو الهند العتيق .

وعلى الساحل فى بومباى تنتشر المقاهى والملاهى وتذكرك بومباى بليالى الشتاء فى الإسكندرية . وما أجمل أن تزور الإسكندرية فى الشتاء بعد أن تكون مياه الأمطار قد نظفت ملابسها من أتربة الصيف وزواره.

والفرق بين دلهى وبومباى مثل الفرق تماماً بين حى بولاق والزمالك وإن كان سكان الزمالك الآن أكثرهم من سكان بولاق السابقين من أصحاب الورش والدوكو ممن فتح الله عليهم مع الانفتاح .

وكل ليلة كنت أسمع فى بومباى مع العشاء الهندى ألحان أغنية مصرية .. يا مصطفى يا مصطفى .. أنا بحبك يا مصطفى .

وأسأل فتاة هندية جلست بجوارى فى حفل عشاء فى بومباى عن الرجل الهندى .. تجيب : من أطيب الرجال قلباً . ولكن الحياة صعبة . أقصد الظروف الاقتصادية قاسية . كنت متزوجة وانفصلت عن زوجى ومعى طفل منه . ولذلك أشعر الآن بأعباء الرجل الهندى والتزاماته.

وأسألها : ترى أيهما أفضل ، الحياة الزوجية . أم الحياة بدون زواج؟

تقول : لم أكن سعيدة مع زوجى . ولم أصبح سعيدة بعد أن تركته

ولكن الزواج فى رأيى شركة لابد أن تشعر فيها بالاطمئنان . وإذا لم يتوفر ذلك فلا خير فى الزواج . أهم شىء أن يشعر الإنسان أن بجانبه رفيقاً يشاركه حياته ويحس بها قد يكون زوجاً أو صديقاً ولكن لا يعنينى من هو بقدر ما يعنينى هل أشعر بجانبه بالأمان أم لا .. هذه هى القضية . لقد خلقنا الله لكى نعيش قلوباً متآلفة مع بعضها ولم يخلقنا لكى يأخذ كل منا جانباً ينزوى فيه وحده .

كانت مشكلتى كما قلت أننى ذهبت لكى أكتب عن الاقتصاد وفى أعماقى أريد أن أعرف أشياء كثيرة غيره .. ولذلك كثيراً ما كنت أهرب باحثاً عن شىء أراه أو أسمعه بعيداً عن الاقتصاد.

وفى الوقت الذى تشعر فيه وأنت فى بومباى أنك تزور بلداً أوربياً فإنك فى مدراس تشم عبيراً أفريقياً على ثوب المدينة الجميلة . تذكرك مدراس بالمدن الأفريقية العريقة القريبة من خط الاستواء . وليس ذلك فى حرارتها ولكن فى غاباتها التى تغطى وجه الأرض فلا تترك للقبح شيئاً . واللون الأسمر « الغامق » يغلب على سكان مدراس فهم أكثر سماراً من سكان دلهى وبومباى وتعتبر مدراس من أهم الموانى التجارية فى الهند .

وفى مدراس أضخم المعابد الهندية القديمة التى أقيمت منذ مئات السنين على قمم الجبال والمرتفعات . ومنطقة المعابد تبعد عن مدينة مدراس بحوالى ٦٠ كيلو متراً .

وفي يوم الأحد من كل أسبوع يتوجه مئات الألوف من المواطنين الهنود إلى المعابد .. منهم من جاء زائراً يريد أن يرى ويسمع، ومنهم منجاء عابداً يريد أن يتقرب إلى آلهته.

واحترام العقائد الدينية فى الهند من أجمل مميزات المجتمع الهندى . كل واحد يحترم عقيدة أخيه أو جاره أو صديقه بحيث لا يترك ذلك مجالاً للحساسيات .

أكثر الديانات انتشاراً فى الهند هى العقيد « الهندوكية » ويدين بها أكثر من ٥٠٠ مليون نسمة داخل الهند وخارجها .

وليس للهندوكية كتاب دينى معروف . ولكن توجد لها بعض الشروح الدينية .

وفى الهند توجد عشرات العقائد الدينية . وهناك آلهة تتعدد أوصافها وأسماؤها . هناك إله للسماء .. وآخر للنار ، وإله للحظ ، وإله للأعاصير والنور ، كما أن الأبقار لها قداستها فى المجتمع الهندى فلا يأكل الإنسان لحمها لأنها مصدر الخير والسعادة . وإن كان المسلمون يأكلون لحمها وهذا شىء طبيعى بالنسبة لهم.

والمسلمون فى الهند يتجاوز عددهم ٨٠ مليون مسلم . وإذا كانت المعابد الهندوكية من أهم نماذج العمارة فى مدراس فإن مدارس تحفيظ القرآن من أجمل مظاهر التمسك بالعقيدة الإسلامية فى الهند .

فى الهند يبدأ الأطفال فى حفظ القرآن الكريم وهم فى سن الثالثة وتنتشر الكتاتيب وجمعيات تحفيظ القرآن فى كل مكان فى الهند . وفى قصر إمبراطور الهند المغولى الذي يسمى « أكبر » واسمه الحقيقى « محمد » يجلس الأطفال فى ساحة القصر يحفظون القرآن . ومن أجمل معالم هذا القصر قبر صاحبه الذى يعتبر قطعة فنية رائعة.

ويجلس الأطفال فى بهو المسجد القديم يحفظون القرآن وشعائر الصلاة . وبالرغم من أن صاحب القصر « أكبر » كان رجلاً لا يعرف القراءة والكتابة فإن قصره فى حياته كان مقصداً للعلماء ورجال الأدب والفنون منذ أكثر من ٣٥٠ عاماً .

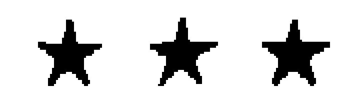
ورغم أن الرجل لم يكن شديد التمسك بالإسلام فإن قصره أصبح الآن مكاناً للعبادة وتحفيظ القرآن .

ويقال أن « أكبر » أشهر حكام الهند أعلن فى آخر حياته ديناً جديداً أسماه « الدين الإلهى » لأنه كان يؤمن بوحدة العقيدة البشرية . ولهذا تزوج من ٣ نساء من ديانات مختلفة إحداهن مسلمة والثانية مسيحية والثالثة هندوكية . ومن أهم المبادئ التى وضعها أكبر أشهر سلاطين دولة المغول فى الهند حرية العقيدة للديانات كلها وكانت إمبراطوريته امبراطورية على وجه الأرض .

وما زال قصر « أكبر » قائماً بالقرب من مدينة دلهى وهو يعتبر

من أشـهـر الحكام المسلمـين فى الـهند . وفى قـصره ترى صـورة رائعـة للعمـارة الإسلامـيـة . كان لكل واحدة من زوجاته جناحـها فى القصر . بالإضـافة إلى جناح واسع للجوارى حيث كان الإمبراطور المغـولى يمتلك ٣٠٠ جـارية . ومـا أ كـثـر الحكايات التى تروى عـن هذا الرجل . كـان فـيلسـوفاً وهو لا يعرف القراءة والكتابة . وكـان يدين بكل الأديان حتى انتهت حيـاته بأن جاء بدين جديد . وكـانت له اهتمـامات ثقافية فجمع حوله الكتـاب والشعراء والمفكرين . وكان يمتلك مكتبة ثقافية عريقة . وازدهرت الفنون فى عـهـد « أكـبـر » أشـهـر سـلاطين المغـول فـشـهـدت الموسيقى الهندية والشعر الهندى فى عهده عصراً من أعظم عصورهما وحقق قـدراً كبيراً من العدالة بين الناس ووضع أسسـاً لاقتصـاد دقـيق فحدد الأجور والأسعار التى تباع بها السلع وعندما مات ترك فى خزينة دولته ما يعادل بليون ريال !!.

ويقال : إن أكبر مات مسموماً على يد أحد أبنائه . ولم يخرج فى جنازته غـيـر أفراد أسرته رغم أنه يعـتـبـر واحداً من أعظم حكام الهند وأكثرهم عدلاً كما يقول عنه ديورانت فى كتابة قصة الحضارة.



طاغور الشاعر الحزين

ما أجمل أن تقترب من شاعر تحبه . سواء كان حياً أو ميتاً فسيان أن يموت الشاعر أو يحيا لأنه أبقى من كل متغيرات الزمن .

إنك تشعر بنبض وجدانك من خلال كلماته رغم سنوات العمر التى تفصل الأجيال . وعوامل الزمن التى تفرق بين الناس . والمسافات التى قد تفصل الشعوب . وتبقى كلمات الشاعر فوق كل هذه الحواجز تطوف فى عالم أكبر من حواجز البشر وأخلد من عوامل التعرية التى تحمل كل يوم معها بعض ما يترك الإنسان حتى تحمل الإنسان نفسه .

وكثيراً ما يرتبط الإنسان بالشاعر وكتاباته حتى يهيأ له أنه يعرفه . وأنه قريب منه وطوال عمرى أحببت الشعر والشعراء وكان

أقربهم جميعاً إلى نفسى ابن زيدون فى شعرنا العربى وطاغور شاعر الهند العملاق.

أحببت كثيراً ابن زيدون . أحببته شاعراً وعاشقاً .. ووزيراً ورجلاً يعانى عذابات الأيام وقسوتها . وكثيراً ما تخيلت قصته مع ولادة وأيام الفراق التى فصلت بينهما حينما غنى لها أعذب ما كتب . وأذكر أننى حزنت كثيراً يوم أن عبرت بنا السفينة مضيق جبل طارق وكنت أتمنى أن تتوقف بنا قليلاً ربما أرى أثراً من آثار ابن زيدون فى قرطبة أو الزهراء أو أطلال أشبيلية . وما يزال يراودنى هذا الأمل .

وعندما هبطت بنا الطائرة فى مطار كلكتا ، المدينة ذات السبعة ملايين نسمة شعرت أن كل شىء فى المدينة يقول : أنا المدينة التى أنجبت طاغور شاعر الهند العظيم . والشعب الهندى يعتز كثيراً بالمشاهير والعظماء من أبنائه ابتداء « بأكبر » الإمبراطور المغولى العملاق وانتهاء بغاندى ونهرو .. وقبل هؤلاء جميعاً يعتز بشاعره طاغور.

ويوم أن ولد طاغور فى مايو من عام ١٨٦١ لم يكن والده قد تجاوز حدود الأمانى عندما تنبأ بمستقبل ابنه وسماه « رابندرا » ومعناه الشمس .. وقال والده إنه مثل الشمس سيطوف العالم .. وسيضىء الدنيا بنوره.

وسبحت فيّ خواطر كثيرة وأنا أطوف شوارع مدينة كلكتا وتذكرت جزءاً من حياة طاغور عندما تلقى دروسه الأولى فى بيت والده. ثم سفره إلى إنجلترا لدراسة القانون وهو لم يزل شاباً فى السابعة عشرة من عمر .وكيف أن طاغور لم يكن سعيداً بحياته فى إنجلترا عندما يقول « كنت أعتقد أن الناس فى أوربا يعرفون كيف يحبون أرضهم. لماذا هذا البؤس الكئيب يخيم على أوربا . لماذا يشمل أرجاءها هذا التهديد بالموت والفناء . إن القلق الذى يجتاح أوربا يرجع إلى أن حبها لأرضها وأبنائها لم يعد كافياً ».

وعاد طاغور من إنجلترا وقد أحب فيها شيئاً واحداً . أحب شعراءها وكان أكبر دليل على ذلك أن طاغور كتب قصيدة رائعة فى شكسبير وصفه فيها بأنه شمس الشعراء .. وأنه أثمن كنز يعتز به قلب إنجلترا .

وبدأ طاغور يكتب فى المجلات الهندية بعد عودته .

شىء من هذه الخواطر دار فى ذهنى وأنا أعبر «الحى القديم» فى مدينة كلكتا. وهذا الحى يعتبر من أقدم الأحياء فى المدينة ويسمى أيضاً « الحى الإسلامى » ويشبه إلى حد كبير خان الخليل فى القاهرة الملابس الهندية المزركشة معلقة على واجهات المحلات التجارية . والعمارات القديمة بأخشابها ونوافذها المنقوشة بالرسوم العتيقة .. والحوارى . ومآذن المساجد ترتفع فى نهاية الشارع تعانق السماء .

بجوار أقدم مساجد مدينة كلكتا يقع القصر الذى ولد فيه طاغور وعاش فيه فترة طويلة من حياته . وشاءت الأقدار أن يموت فى القصر الذى ولد فيه . ولقد أصبح القصر الآن جامعة كبيرة تسمى « جامعة طاغور » كان القصر يبدو من بعيد خلف أشجار الكافور فى لونه الأحمر الجميل بطوابقة الثلاثة . أمام القصر حديقة كبيرة يتوسطها تمثال ضخم لشاعر الهند العملاق ، واتجهنا إلى الطابق الثانى فى القصر على سلم خشبى . فى أول حجرة فى هذا الطابق عاش طاغور آخر ساعات عمره. هنا مات طاغور. أرضية الحجرة مغطاة بالرخام المزركش الجميل وعلى جدرانها ٤ صور مختلفة لطاغور. وتتوسط الحجرة فازه كبيرة تقع فى المكان الذى مات فيه . بجوار الحجرة التى مات فيها حجرة أخرى هى حجرة نومه. فيها مكتب صغير وسرير متواضع والكرسى الذى كان يجلس عليه وصورة بالحجم الكبير لزوجته التى ماتت، وهى لا تزل فى عشرينيات عمرها وعاش بعدها ٤٣ عاماً وفياً لذاكرها . وكان موتها من أكبر الكوارث التى أثرت فى طاغور. وفوق المكتب الصغير بعض أوراقه . وعلى جدران الحجرة تناثرت كتاباته بخط يده. أكثر ما شد انتباهى فى هذه الحجرة عربة صغيرة « لطفلة » وسألت أحد المرافقين فقال إنها عربة ابنة طاغور التى ماتت وهى صغيرة وظل طاغور حزيناً عليها طوال عمره.

فى حجرة أخرى كان دولاب ملابس طاغور بأحجامها الكبيرة

وأحذيته.. ومعطفه الكبير .. وبجوار هذه الحجرة مائدة صغيرة للطعام وبعض المقاعد المتواضعة.

يحملك القصر بعد ذلك إلى ممر كبير فيه أكثر من ٢٠ لوحة مهداة إلى طاغور من فنانين عالميين . وفى نهاية هذا الممر مكتبة ضخمة تحتوى على جميع مؤلفات طاغور . ويعتبر طاغور من أكثر أدباء وكتاب العالم إنتاجاً . كتب خمسين مسرحية . ومائة ديوان شعر. وأربعين قصة ومجموعة كتب فى المقالات السياسية والفلسفية ومجموعات ألحان ورسوم . وحصل على جائزة نوبل عام ١٩١٣ على ديوانه « جيتنجالى » وتنطلق فى مكتبة الجامعة ألحان طاغور.. ويتجمع الطلبة حول كتب طاغور وألحانه ولوحاته ويتعلمون منها الفن الراقى والإبداع الخلاق . كنت أشعر وأنا فى بيت طاغور بكلمات الرجل تتردد فى أرجائه حية نابضة. وهل هناك أفضل من هذه القلوب التى ما زالت تخفق بكلماته وتردد ألحانه .. وتعيش فى صفاء عالمه بكل أحاسيسها ومشاعرها.

فى المكتبة لوحة كبيرة كتبت عليها أسماء الدول التى زارها من بينها مصر . وفى جانب آخر مجموعة من الصور التى جمعت طاغور مع زعماء العالم.

ولم أنس أن أكتب كلمة صغيرة فى دفتر الزيارات بالمكتبة قلت فيها : إننى واحد من عشاق شاعر الهند العظيم . وما أجمل أن يرى الإنسان أثراً من إنسان يحبه.

جامعة .. من الأشجار

عندما تنزل زائراً لمدينة كلكتا يمكن أن ترى فيها وجوهاً عديدة للإنسان الهندى بمشاكله.. ومعاناته . بتاريخه وثقافاته. بعاداته وتقاليده.. سوف ترى مشاكله فى الملايين الذين يؤرقهم ويعذبهم الحصول على رغيف العيش . سوف ترى معاناته فى مشاكل يومية لا تنتهى .. وسوف تجد تاريخه فى القصور والمتاحف والمساجد . وترى وتسمع عن عاداته فى كل مكان تذهب إليه .

وسوف تجد فى كلكتا من يسألك هل زرت جامعة طاغور الشهيرة « دار السلام » الطلبة فى هذه الجامعة يجلسون تحت الأشجار وفوق أغصانها ولا يوجد فيها مدرج واحد .. رحلة الحياة فى هذه الجامعة تبدأ فى سن الخامسة وتنتهى بعد العشرين .

كنت طوال رحلتى فى الهند أقاوم اتجاهين .. أننى جئت لكى أكتب وأرى وأسمع عن الاقتصاد . وفى أعماقى يجذبنى حنين للحضارة والثقافة والتاريخ الهندى . وكثيراً ما كان الاقتصاد كما هى القاعدة يتغلب على الجوانب الأخرى ، ولكننى كنت بين الحين والآخر أحاول أن أخلص نفسى من هذا القيد .

وبعد كل ما سمعت عن جامعة طاغور الشهيرة كنت حريصاً على أن أزورها . وحملنا القطار إلى مدينة ديلجابور على بعد ٢٢٠ كيلو متراً من مدينة كلكتا .. ثلاث ساعات كاملة قضيناها فى القطار .. والجامعة لها تاريخ طويل .. أنشأها طاغور فى عام ١٩٠١ وكان عدد تلاميذه يوم أن جاء إلى هذا المكان لكى يقيم فيه مدرسته خمسة تلاميذ أصبح عددهم الآن يقترب من العشرين ألفاً . والسبب فى اختيار هذا المكان بالذات لكى تقام فيه الجامعة أن والد طاغور كان يتعبد فيه .. وما زالت الربوة التى كان يتعبد عليها قائمة هناك حتى الآن . وكان والد طاغور يعتقد أن مدينة « ديلجابور » أفضل مكان للعبادة والتقرب إلى الله . وهذا طلب من ابنه الشاب « رابندرانات » أن يذهب المكان إذا أراد أن يقيم عملاً أو يهرب من متاعب الحياة وأحزانها .

كان طاغور قد تزوج وأصبح له أولاد .. وشاءت الأقدار أن تحمل له مجموعة من الكوارث مرة واحدة .. مات والده .. ثم ماتت زوجته وهى فى العشرينيات من عمرها ثم مات اثنان من أبنائه وأظلمت الحياة

أمام طاغور. وتذكر نصيحة والده فجمع حقائبه وترك قصر والده الكبير فى مدينة كلكتا واتجه إلى « ديلجابور » .. وفيها أقام مدرسته التى أسماها در السلام . وكان هدفه منها أن يعلم أبناء الشعب الهندى على اختلاف مستوياته . وأن ينفق على مدرسته من ماله الخاص . كانت مشكلة طاغور بعد عودته من إنجلترا أنه لم يقتنع بأسلوب الحياة فى الغرب لأن المدينة الحديثة بثقافاتها وأساليبها أفسدت الجوانب الروحية والنزعات الجمالية فى الإنسان . فقد أصبح الإنسان عبداً للمادة وكان ذلك فى رأى طاغور هو السر فى تعاسة الجنس البشرى رغم تقدمه الحضارى . ولذلك يقول طاغور « إننا نحقق الكمال بالتعاطف وليس معنى التعيم أن نتزود بالمعلومات فقط ، ولكن التعليم هو الذى يجعل حياتنا فى انسجام مع الموجودات إن التعليم المبنى على التعاطف لا يلقى الاهتمام الكافى فى المدارس ويتعرض لكبت شديد ».

ثم يقول طاغور: « إننا نسرق من الطفل أرضه لنعلمه الجغرافيا ونسرق لغته لنعلمه النحو . ونحن نعلم أن الأطفال يحبون التراب. ويتعطشون لضوء الشمس ، ويعشقون الهواء والأزهار ، ولا يرفضون الاتصال المباشر مع الكون» . ثم يسخر طاغور من أساليب التربية الحديث فيقول: « إننى أذكر الضيق والدهشة التى انتابت ناظر المدرسة الذى اشتهر بحب النظام حينما رأى تلميذاً يجلس على فرع شجرة ، فقلت له يومها : إن الطفولة هى المرحلة الوحيدة فى الحياة التى يمكن

للإنسان فيها أن يختار بين أغصان شجيرة ومقعده فى حجرة التربية الفنى . فهل يجور لى أن أمنع التلميذ من أن يجلس فوق فرع شجرة لأننى كرجل كبير لا أستطيع أن أفعل ذلك ».

كان هدف التعليم فى نظر طاغور هو تزويد الإنسان بوحدة الحقيقة ، ولذلك يقول: « لقد كانت الحياة أبسط .. وكانت كل عناصر الإنسان فى انسجام كامل . ولكن الانفصال حدث بين الجوانب المادية والروحية فى حياة الإنسان . وكان ذلك على حساب الجانب الروحى فى حياته. إننى أومن بالعالم الروحانى ليس كشىء منفصل عن هذا العالم، ولكن باعتباره حقيقته الخالصة ، وممارسة هذا العالم ضرورة لأطفالنا ».

كانت هذه هى أفكار طاغور عندما بدأ تجربته فى ديلجابور. كان يريد أن يعلم الأطفال الكيمياء وهم يرددون الشعر . ويسمعون الموسيقى تحت ظلال الأشجار . كان يريد أن يخلق أجيالاً تحب الطيور كما تركب الطائرة . وتعشق الشعر كما تستخدم الذرة . وكان طاغور يعتقد أن الثقافة المادية بدون الجانب الروحى والجمالى تخلق نفوساً مشوهة وأجيالاً مريضة من البشر .

وجمع طاغور خمسة تلاميذ بدأ بهم تجربته تحت شجرة ضخمة مازالت قابعة فى وسط الجامعة حتى الآن رغم أن عمرها أصبح الآن يزيد على سبعين عاماً . وبدأت الجامعة تكبر ويزداد عدد تلاميذها عاماً بعد عام . وأصبح من بين أساتذتها غاندى ثم نهرو .. وتخرجت فيها أنديرا

غاندى عام ١٩٣٦ أكثر من هذا أن غاندى عاش فترة طويلة من حياته تحت ظلال هذه الجامعة بعد أن عاد من منفاه وبعد رحيل طاغور فى عام ١٩٤١.

انطلقت بنا السيارة فى مدخل الجامعة وعبرت من بابها الضخم والأشجار تتناثر على الطريق وتعانق السماء بلونها الأخضر . مساحات شاسعة من الخضرة .. الملاعب الواسعة تناثرت حولا الأشجار والزهور. والطلبة يجلسون تحت الأشجار على مقاعد دائرية بنيت من الطوب بينما يجلس الأستاذ على مقعد صغير بجوار جذع الشجرة والجميع ينصت .. ويتابع ... ويتأمل . وتبلغ مساحة الجامعة الآن ١٠ كيلو متر مربع .

الطلبة والطالبات والأساتذة يعيشون فى الجامعة ويتعلمون فيها. فى مدخل الجامعة عشرات البيوت الصغيرة للطلبة . ولكل طالب حجرة فيها مكتب وسرير ومكتبة .

وعلى جانب آخر من الطريق أقيمت بيوت الأساتذة وأسرهم. وبجوارها مباشرة بيوت الطالبات ..

الجميع يعيشون تحت سماء مدينتهم الصغيرة « دار السلام » كأنهم أسرة واحدة . فى المساء تقام الحفلات تحت الأضواء فى وسط الحدائق. ويردد الطلبة والطالبات والأساتذة أشعار طاغور وأغانيه وألحانه . إنه الرجل الذى جمعهم فى هذا المكان .

وفى النهار تدور المناقشات الفكرية والحوار الخلاق.

تبلغ المساحة الخضراء ٧٠٪ من مساحة الجامعة والنسبة الباقية للمبانى . وفى وسط الجامعة بيت للضيافة يقيم فيه الأساتذة والعلماء الأجانب والأساتذة الزائرون وضيوف الجامعة .

وتحت إحدى الأشجار التقى بالدكتور « ديفكاكوشيك » الأستاذ بالجامعة ... ونبدأ جولتنا تحت ظلالها.

تنقسم جامعة دار السلام إلى قسمين :

يشمل القسم الأول تلاميذ المرحلة الابتدائية والثانوية .

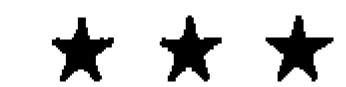
ويشمل القسم الثان طلبة المرحلة الجامعية .. فى دار السلام يذهب الطالب للمدرسة وعمره ٥ سنوات ثم يقضى ٦ سنوات فى المرحلة الابتدائية . ثم يقضى ٦ سنوات أخرى فى المرحلة الثانوية . ومنها ينتقل إلى المرحلة الجامعية . وتتراوح الدراسة فيها ما بين ٣ إلى ٦ سنوات حسب نوعيات الكليات.

وفى جامعة دار السلام كليات للعلوم بفروعها المختلفة . وكليات للزراعة والطب والفنون الجميلة والآداب والعلوم الإنسانية ولا يزيد عدد الطلبة فى الجامعة على ٤٠ طالباً لكل أستاذ .. وفى كلية الفنون على سبيل المثال يوجد ١٥٠ طالباً و ٢١ أستاذاً .

وفى جامعة دار السلام توجد أقسام للدراسات العليا للحصول على درجات الماجستير والدكتوراة. وأقسام متخصصة لدراسة الآداب

العالمية . ويدرس فى الجامعة مئات من الطلبة الأجانب الذين وفدوا إليها من جميع بلاد العالم ، ولذلك تبلغ نسبة الطلبة الأجانب فى الجامعة ٢٠٪ من عدد الطلبة الدارسين فيها .

ويتوافد كل عام إلى الجامعة العتيقة مئات الأساتذة والباحثين لدراسة هذه التجربة الفريدة ومتابعة تطورها.



فى بيت طاغور

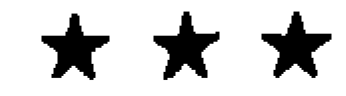
وفى وسط الجامعة قصر كبير تحيط به الأزهار من كل جانب وأمامه مجموعة ضخمة من الأشجار . وحوله مساحة شاسعة من الخضرة. فى هذا القصر عاش طاغور أكثر من ٤٠ عاماً وكتب فيه معظم أعماله التى كان من بينها ديوانه « جيتنجالى » الذى حصل على جائزة نوبل فى عام ١٩١٣.

هنا كان طاغور يقضى أيامه . وتحت شجرة عتيقة كثيراً ما جلس حوله تلاميذه ومحبوه . وكم تجول ليلاً وراء خاطر يريد أن ينقله إلى الورق . وكم عاش أشجانه وأحزانه. وهنا رأى تلاميذه يزداد عددهم كل يوم ، والمؤمنين بفكره وفلسفته ينتشرون من هذا المكان فى بقاع الأرض المختلفة يغرسون فيها حب الجمال وسمو المشاعر والارتقاء بالوجدان فى زمن تلاشت فيه معالم هذه الروحانيات .

في بيت طاغـور ٣ طوابق كان يفضل أن يعـيـش في الطابق الأول منهـا في حـجرة تتـلاقى على نافـذتهـا أنواع مـختـلفـة من الزهور . والآن تحـول القـصـر العـتـيق إلى مـتـحف كـبـيـر يضم آثار الرجل . في البـيت قـاعـات كـبـيـرة للقراءة . وأعـداد ضخمـة من الكتب من بينهـا مـؤلفات طاغور .

ومن آثار الرجل المؤلفات التي كتبت عنه والرسائل الجامعية التي تناولت بالدراسة والبحث حياته، وفكره ، وشعره وألحانه. كما توجد في المكتبة مئات الكتب المهداة إلى طاغـور من الكتـاب العـالميين وعليـهـا إهداءاتهم . وفـي هوامشـهـا تعليـقـات كـثيـرة بخط طاغـور. وفي البيت قاعة ضخمة لتنميةمواهب الطلبة في الرسم والتصوير والزخرفة والنحت والموسيقى .. لأن طاغور كان يؤمن بوحدة الفنون لأن هدفها جميعاً هو الارتقاء بالإنسان .

في هذه الجـامـعـة كـتب طاغـور أعـمـاله . وعـاش مـعظم أيامـه . وأنفق علهـيـا مـاله حتى قـيـمـة جائزة نوبل التي حصل عليـهـا وبلغت ٨ آلاف جنيه أنفقها في توسيع جامعته.



بين الشعر والفلسفة

كان طاغور يعتز دائماً بأنه شاعر وليس فيلسوفاً أو عالماً باحثاً.. وهكذا كان العقاد يقول عن نفسه .. وكان النجاح الأكبر لطاغور يوم أن حصل على جائزة نوبل عن قصيدته « جيتنجالى » أو «قربان الأغانى» والقصيدة تعكس الصفاء الروحي والحساسية التى تقترب من التصوف عند طاغور .. ولم يكن التصوف بالنسبة لطاغور يعنى الزهد فى الحياة .. فهو يقول « لست مجرد عابر سبيل فى رحلة وجودى ماراً بمقهى من المقاهى على هامش الطريق من هذه الأرض ولكننى أعيش فى عالم يرتبط بى ارتباطاً وثيقاً ».

والطبيعة فى رأى طاغور لم تكن ذرات فحسب ولكنها اتحاد مع الروح تشكل قوة حياة .. ففى « جيتنجالى » نادى طاغور بأن « نبع

الحياة الذى يجرى فى عروقى ليلاً ونهاراً هو نفسه الذى يجرى فى العالم.. ويرقص بأساليب إيقاعية .. ولذلك نقد طاغور الشعراء الإنجليز مثل شكسبير اللذين كثيراً ما صوروا الطبيعة وكأنها خصم للإنسان .

* * *

وتدور فلسفة الكائنات عند طاغور حول الإنسان ، ويأخذ فيه الكون الأهمية فقط عند صلته بالإنسان والروح .. ذلك يتضح من خلال المناظرة الشهيرة التى جرت بين طاغور وبين ألبرت أينشتين سنة ١٩٣٠.. لم يتفق أينشتين فيهامع طاغور على موقفه الإنسانى المحض للكون .. وأكد ذلك بالنظرية الفيثاغورثية التى تعتبر الحقيقة مستقلة ومنفردة عن الإنسان . وقد عارضه طاغور قائلاً : إن الحقيقة لا يمكن أن تدرك إلا عن طريق الإنسان . والعلم ليس إلا واسطه تخطى حدود الأذهان الفردية . وهكذا يمكن إدراك الحقيقة التى توجد فى مخيلة الإنسان العالمى .. وتقدم أينشتين بالفكرة القائلة بأن الحقيقة توجد فى الاتحاد المنطقى بين الناحيتين الذاتية والموضوعية للحقيقة.. وهما تتصلان بالإنسان الفرد الكامل، ولذلك لا يمكن للحقيقة إلا أن تكون حقيقة إنسانية . وقد اعترف طاغور باحتمال وجود بعض الحقائق خارج الأذهان الفردية . ولكنها لن توجد خارج الأذان الفردية والعالمية، وهذه عملية ممكنة عن طريق الفلسفة والعلم والأخلاق والآداب.

وقد أصر طاغور على أن « التمتع الحقيقى » لن يكون عن طريق إشباع الطمع والجشع ولكنه سوف يتحقق فقط عن طريق إخضاع ذاتنا الفردية للذات العالمية .

وفى جامعة أكسفورد سنة ١٩٣٠ - قال طاغور : إننا نواجه على سطح وجودنا مراحل التغير الدائم للذات الفردية ، ولكن تعيش فى الداخل الروح السرمدية للاتحاد الإنسانى وراء معرفتنا المباشرة .

إن الشعور بالألوهية مع القلب والعقل باعتبار أنها تعيش فى نفوسنا يضمن الحياة الأبدية الخالدة .. والنقطة المهمة هنا أن الله يعيش فى الإنسان . وقال طاغور لأينشتين : ديانتى هى التوفيق للإنسان الفرد الكامل . أى الروح الإنسانية العالمية فى وجودى الفردى نفسه . وقد أزيلت الحواجز بين الله وبين الإنسان فى رأى طاغور فالبشر ليسوا إلا تعبيراً محلياً عن الله .

العالم ملىء بالعمى الروحى فى رأيه . تستباح فيه رغبات الطمع والكراهية إلى أبعد الغايات . تصحبها السايسة الخادعة . والدعاية الكاذبة المنتشرة على نطاق واسع ، وتصبح فيه النفس البشرية محبوسة فى قفص . فهى نفس أمارة بالسوء تتأتى عليها شراهتها وتهدم نفسها بنفسها .

إن جميع دوافعنا ورغباتنا الإنسانية تحجب بصيرتنا للروح . لأنها تشرى إلى ذاتنا العتيقة . رغبتنا تعمينا عن الحقيقة التى توجد

فى الإنسان . وهذا أكبر خطأ ارتكبناه نحو روحنا نفسها . إنه يقتل الشعور وهذا أسلوب بطىء للانتحار الروحى . إنه يسبب الجروح والقروح الفظيعة فى جسم الحضارة ، ويزيد فى أكواخها . وفى بيوت الريبة وقوانين عقوباتها الانتقامية ونظم حبسها الوحشى وأسلوبها المنظم لاستغلال الأجناس البشرية إلى حد الإساءة إليهم دائماً .. والعلاج عند طاغور لإزالة ضيق الأفق الروحى والهوى الذاتى هو الحب . ولهذا يقول: «يجب على الشخص أن يزرع عظمة الروح التى تميز نفسها . من روح جميع الناس ... وليس مع روح الشخص الواحد ويصبح هدف الإنسان أن يعيش للخير والحب اللذين لا يمكن أن يكونا إنسانيين وأن يزيل الإنسان جميع الحدود ليحب ويبلغ سمو النفس فى حقيقته وهو الحب نفسه ».

وعن طريق الحب فى رأى طاغور يدرك الإنسان حقيقة نفسه والله والطبيعة ، لأن الإنسان الوحيد المنعزل كائن مبتور .. وإن الإنسان لابد أن يتحد اتحاداً كاملاً مع زملائه من البشر .

وعاش طاغور يؤمن بضرورة اتحاد الفكر وتفاعله بين الشرق بروحانياته والغرب بمادياته أن اتحاد الشرق والغرب ينجز اتحاد الجوانب الروحية والعلمية .. وبسبب عدم اتحادهما يعيش الشرق فى الفقر بدون حركة ونشاط .. ويعيش الغرب فى عالم الشقاء وعدم الارتياح . وأن كليهما فى حاجة لبعضهما البعض لكمال النفس الروحانية الخالصة ..

كما تعلمناها من حكمتنا المقدسة متزنة وهادئة فى القوة وفى علاقتها بما هو سهل الوصول إليه وما هو خارج الطاقة.

وقد عكست حياة طاغور رغبته لإنجاز الروحانية العالمية. ولكن اضطراب أوربا وقلقها فى آخر حياته أخمد عزيمة الرجل فكتب فى عام ١٩٤١ مقالاً بعنوان « زوال الوهم الحزين » قال فيه: « كنت أعتقد بأن ينابيع الحضارة الصادقة سوف تتدفق من قلب أوربا . واليوم وقد كدت أغادر العالم تزلزل هذا الاعتقاد ».



شاعر وأحلام

ويقول ديورانت فى كتابه قصة الحضارة عن طاغور وحياته وطفولته: «كان روحا رقيقا منذ ولادته. وكان من الحنان بحيث تشجعت فئران السنجاب على ارتقاء ركبتيه. واطمأنت الأطيار إلى الوقوف على راحتيه. وكان دقيق الملاحظة متفتح النفس يحس كل ما تأتيه به تجارب الحياة بإحساس مرهف كإحساس المتصوفين. فكان أحيانا يقف في شرفته ساعات يلاحظ بفطرته الأدبية كل من يمر أمامه فى الطريق. قوامه وقسماته وحركاته التى تميزه وطريقة مشيته. وأحيانا يجلس على كنبة فى غرفة داخلية. ويظل نصف يومه صامتا تمر فى رأسه الذكريات والأحلام.

ويبدأ ينظم الشعر على لوح اردوازي. وسرعان ما وجد نفسه ينشد

الأغاني المترعة بحبه للهند. حبه لجمال مناظرها وفتنة نسائها. وعطفه على أهلها في آلامهم. وكان ينشيء لهذه الأناشيد موسيقاها بنفسه فأخذت الهند كلها تتنفس بها. وكان الشاعر يهتز كيانه كلما سمعها على شفاه أهل الريف السذج. وهو في طريقه مسافرا إلى القرى النائية».

★ ★ ★

ومن أجمل الأبيات التي كتبها طاغور شاعر الهند العملاق أبياتا تقول:

كانت في أعماقي

ملحمة عظيمة ...

كم دارت في رأس شاعرك الحبيب.

وا أسفاه يا حبيبتي،

فقد تكسرت أجزاؤها

فوق خلخالك الجميل ..

وأصبحت قصاصات من أ غاني

أشاهدها الآن منثورة

على قدميك

وطاغور يعتبر أن الشاعر أكبر من الموت فيقول :

أيها الشعر،

إن الغروب يدنو منك

ويلوح من بعيد

والمشيب يطوف فوق شعرك

وصوت الآخرة يناديك..

قال الشاعر :

إننى أسمع الغروب ..

إننى أصغى إليه ..

ولكن ..

ربما ينادينى من القرية البعيدة

صوت هاتف بعيد ..

قد يكون قلبين ضالين يلتقيان ..

قد يكون زوجين تجمعهما

العيون المشتاقة..

تحن إلى الموسيقى

ترى من ينسج لهؤلاء جميعاً

ألحاناً تروى قلوبهم

إذا جلست على شاطئ الحياة

لكى يضيع عمرى وأنا

أتأمل الموت والحياة..

إنه لشئء تافه

إن يدب المشيب فى شعرى؛

لأنه دائماً فى شباب ..

أقوى من الشباب ..

وفى شيخوخة أكبر كثيراً

من كل الشيوخ ..

لم يعد عندى وقت

أتركه يضيع منى

وأنا أتأمل وأتساءل

عن مصيرنا بعد الحياة ..

وماذا يضيرنى

إذا امتلأت رأسي بالبياض..

ودب فيه المشيب

* * *

وعاش طاغور يغنى ألمه كما يغنى أفراحه .. وكان دائم التفاؤل رغم أحزان السنين التى أثقلت عليه كثيراً ويناشد زوجته الراحلة :

« إن بيتى صغير

وما فقدت منه هيهات أن يعود

ولكن بيتك يا إلهى

بلا حدود

وحينما ذهبت أبحث عنها

قادتنى إلى بابك خطاى »

* * *

والشاعر فى رأى طاغور قيثارة الألوهية فيها تنفخ النغم . وتتعالى مليئة بالحب مزدانة بالحنين . والشاعر روح غارقة فى جسد مقيدة بأهواء يطغى عليها الطموح ويستأثر بحبها الناس .. وتغريها بهرجة الأشكال .:. إنها فى جهاد شاق وعناء مؤلم إلى أن تتحرر من كل

شهوة وكل شكل وكل لون جذاب وتغادر هذه الحياة لتغوص فى قلب الحياة الشاملة » .

* * *

وطاغور يغنى الليل كما غنى له الشعراء عبر أجيال طويلة .. ولكن غناء طاغور يختلف ..

أيها الليل ..

إن أناسا كثيرين

قضوا فى ظلامك أعمارهم صامتين

فدعنى أرتل أغانيهم

خذنى فى عربتك

وانطلق فى غير جلبة

من دنيا إلى دنيا

أنت يا مليكا

فى قصر الزمان

أنت أيها الجمال المظلم

إن منزلك الموحش

يعبر فيه نسيم الربيع الشريد

إنه ينقل إليك

أنباء عن الزهور

زهور لم تقدم بعد

إكراما لك ..

كم عيد لايحمل إليك

سوى الصمت

يا إله الهيكل الحرب

كم رسم أبدعته يد الفنان

وجرفه تيار النسيان

* * *

ورغم كل شيء فإن طاغور لم يفقد الأمل يوما .. ظل على تفاؤله رغم الحزن العميق الذى سكن جوانحه .. ورغم أن أحلامه فى إنسان أفضل لم تتحقق .. ولذلك قال وهو يموت :

إذا ما رحلت

عن هذه الدنيا

فلتكن آخر كلمة

أرحل بعدها

أن ما شهدته فى الدنيا

ليس بعد كماله .. كمال .

* * *

هنا يحرقون الموتى ..

كنت أريد أن أرى كل شيء عن طاغور .. وكلما كنت أسمع أو أرى شيئاً من آثار الرجل كان تقديرى وإعجابى به يفوق كل الحدود .. فهو الشاعر الذى ترنم بأشجى الألحان وأجميل الكلمات . وهو الموسيقار الذى استطاع أن ينتقل بالموسيقى الهندية من مرحلة الارتجال إلى مرحلة التطوير القائم على القواعد والأصول . واستطاع أن يمزج بين الموسيقى الهندية والموسيقى الأوربية دون أن تفقد الموسيقى الهندية طعمها الخاص.

وكان التصوف فى حياة طاغور يجعل منه إنساناً نورانيا ، يتجاوز بمشاعره وأحاسيسه حدود البشر .. ولذلك كان ساخطاً على ما وصل إليه حال البشرية من تدهور فى القيم .

لأسبـاب كثيـرة كنت حريصـاً أن أرى كل شيء عن طاغـور .. وطلبت أن أزور قبره .. وكانت المفاجأة ..

حملتنا سيارة صغيرة .. وأخذت تجوب في حواري مدينة كلكتا .. وسحابات الدخان تحاصرنا من كل جانب لأن الناس يستخدمون الأخشاب وخاصة الطبقات الفقيرة في الأحياء الشعبية .

ودخلنا في شارع كبير . وفي منتصفة أشار رفيق رحلتنا للسائق بأن يتوقف . دخلنا من بوابة كبيرة ووجدت وروداً .. وعدداً كبيراً من النقوش الخشبية .. وحركة غير عادية .. قلت - بيني وبين نفسي -: لعلهم زوار المقابر.

ودخلنا من البوابة الضخمة وفوجئت بمشهد رهيب ...
هنا يحرقون الموتى ...

وبدأت أصوات الجماجم في النيران وهي تنفجر كأنها قنابل تعصف برأسي . والدخان المتصاعد من الجثث التي يختلط تفحمها مع السحب الكثيفة التي تنبعث من داخل « المحرق » .. عشرات الجثث تحترق في هذا المكان . وأشار رفيق رحلتنا : هنا احترق طاغور .. في هذا المكان . وبينما كانت جماعات من الناس تتولى إحراق الجثث . كانت جماعات أخرى تلقي برمادها في النهر المجاور للمحرق.

وإحراق جثث الموتى من الطقوس الدينية المهمة في الهند . ففي نهاية الحياة يقام حفل ختامي يتم فيه إحراق جثة الميت .

وكان من العادات الهندية القديمة أن تحرق الزوجة « الحية » على « الكومة » التى احترق فيها زوجها .ويقول هيرودوت عن هذه الظاهرة: «إن هذه العادة هبطت على الهند من العادات القديمة التى كانت تسمح بالتضحية بواحدة أو أكثر من زوجات الأمير أو الغنى أو خليلاته وطائفة من عبيده وغير ذلك من القرابين التى تعنى بالميت وترعاه فى الآخرة »!

وكان من عادات الهند أن الأرملة الطاهرة لا تحب أن تحيا بعد زوجها بل تلقى بنفسها فى النار خلف زوجها الراحل . وكانوا قديماً فى الهند يدفنون الزوجة وهى حية أو يحرقون جسدها فى نفس الحفرة التى حرق فيها زوجها.

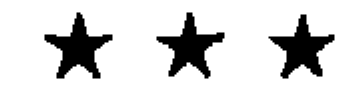
وانتهت ظاهرة حرق الزوجة بعد زوجها ، وكان زواجها بعد رحيلة يعتبر جريمة .. وتزوجت فى ظل عادات أخرى أكثر تطوراً .

ولكن ذلك كله يعكس قدسية الحياة الزوجية فى الهند والإيمان بالحياة الأخرى التى يجتمع فيها الزوج مع زوجته مرة أخرى فى ظل حياة أبدية لا تنتهى .

ويرجع الفضل إلى الإمبراطور المغولى « أكبر » الذى منع المرأة من أن تحرق نفسها بعد وفاة زوجها .. وأجاز زواج الأرامل وحارب هذه العادات حتى قضى عليها منذ أكثر من ٤٠٠ سنة .

ولكن إحراق جثث الموتى ما زال عادة هندية مقدسة طبقاً للطقوس الدينية.

وأخيراً حملت معى من كلكتا مجموعة كبيرة من دوواين شعر طاغور وأسطواناته. ودراسات كتبت عن حياته وشعره . وبينما كانت سحابات الدخان تختفى من أمامنا ونحن نودع مدينة كلكتا تذكرت مقالاً كتبه طاغور فى عام ١٩٤١ تحت عنوانً « زوال الوهم الحزين » قال فيه: «سوف لا أرتكب الذنب الكبير بقطع أملى وإيمانى فى الإنسان ».



على جبال الهملايا

الأيام تمضى مسرعة ..الرحلة تقترب من نهايتها .. أربع ساعات كاملة فى الطائرة من مدينة كلكتا إلى كشمير .. كنت أعلم أن الهبوط فى كشمير أهم مشكلة فى الوصول إليها . لأنها تقع على أحد قمم جبال الهملايا أعلى جبال العالم .. ولابد للطائرة أن تدخل بين جبلين يقتربان بصورة يبدو لك فيها أن أجنحة الطائرة عل وشك أن تصطدم بالجبال .. وكثيراً ما تحدث كوارث بسبب ذلك .. لأن الضباب يشبه تماماً قمم الثلوج على الجبال .. وقد لا يفرق قائد الطائرة بين الضباب والثلوج.. فيصطدم بالجبل وينتهى كل شيء.

المهم ، دخلت الطائرة فى ممر صغير كنت ترى على جانبيه سلاسل جبال الهملايا وهى تقترب من الطائرة .. أو تقترب منها الطائرة . وأخيراً هبطت فى المطار .

ومطار « سرينجار » صغير إلى حد كبير . ولعل ذلك يرجع إلى أن مقاطعة كشمير مقاطعة صغيرة .. تعداد سكانها لا يتجاوز ٦ ملايين نسمة .. وتقع على ارتفاع ١٧٠٠ متر من سطح البحر وتبلغ مساحتها ٢٤٠٠ ميل مربع .

كان فصل الشتاء يلقى ظلاله على كل شىء فى المدينة .. الثلوج تغطى كل شىء ابتداء بالبيوت وانتهاء بالأشجار والطرق ..

وانطلقت بنا السيارة عبر منحنيات .. ومرتفعات مختلفة .. والثلوج تلوح لنا من بعيد عى قمم الجبال الممتدة أمامنا . والأرض البيضاء وكأنها عروس فى ليلة زفافها .. الغريب أن الثلج يقتل أشياء كثيرة .. وما أثقل أن أن ترى الجمال وهو يموت .. بقايا الأشجار .. والحدائق تتناثر على جانبى الطريق .. واللون الأبيض يغلف كل شىء حولنا .. ولا أدرى فقد عبر خاطر سريع على ذهنى .. لماذا ترتدى العروس الملابس البيضاء فى ليلة زفافها .. وأيضاً ترتدى الملابس البيضاء فى وقت رحيلها .. تشابه عجيب بين الفرح والحزن كلاهما وجه لعمله واحدة.. اسمها الحياة .

الثلوج تشعرك دائماً بأنك تعيش فى عالم لا نبض فيه .. الشوارع خاية من الناس تماماً . كل إنسان يحاول البحث عن مدفأة أو ثوب ثقيل يواجه به تلال الثلوج التى تحيط بكل مكان فى المدينة.

والأشجار عارية من أوراقها .. وما أسوأ أن ترى أشجاراً فقدت حياءها .. إنه منظر مثير ولكنه محزن .. أن ترى حديقة عارية.

ولكنه الجليد الذى يعرى الطبيعة من ثيابها.

تحت أقدامى فى السيارة شعرت بأطياف دفء تتسرب فى عظامى ونظرت إلى أسفل فوجدت مدفأة فى السيارة .. ولم ينس السائق أن يقدم لنا « غطاء » لأقدامنا.

إن كشمير تشعر أن ثلوجها كثيرة ولذلك تريد أن تقدم الدفء للقادمين إليها .. حتى فى قلب المطار تجد مدفأة ضخمة فى قاعة المسافرين ..

ألوان متعددة تعكسها أشعة الشمس على قمم الجبال كأنها ثوب عروس تتناثر قطع من الألماس على جوانبه .. ألوان مختلفة الأبيض والأحمر والأزرق .. أطياف تعكسها جبال الهملايا ..

بعض الأشجار استطاعت أن تحطم أسطورة الثلوج التى لا تقهر فصمدت على أغصانها بعض الأوراق . مثل الحياة تماماً قليل منا من يستطيع الصمود أمام متاعبها .

السيارة تهدأ أمام قصر قديم .. إنه « لوكاندة الأوبرون » قصر عتيق كان أحد أغنياء كشمير قد أهداه للحكومة.. فأقامت منه فندقاً كبيراً . أمامه بحيرة واسعة وتحيطه مجموعة من السلاسل الجبلية

العاليـة.. المهم أنه فى كل مكان يتجه إليه نظرك سوف ترى الجبال .. ولا شيء غيرها .. حتى السماء الواسعة . لا يبدو منها أمامك إلا جزء بسيط يتضاءل حجمه أمام الجبال العملاقة.

أكـوام من الثلوج تتناثر على نوافذ الفندق .. حجرات الفندق واسعة .. تحتاج الواحدة منها عشرات المدافئ.

مدينة كشمير مدينة جميلة .. ويقال : إنها أجمل كثيراً من سويسرا ولكن زوارها الراحلون رحلوا مع صقيعها .. إنهم يعودون فى فصل الصيف . كانت الحدائق خالية من الناس تماماً .. وطوال شهور الشتاء تغلق الجامعات والمدارس أبوابها..ولذلك تنتهى الدراسة فى شهر مارس من كل عام . وحدائق كشمير عبارة عن قلاع لجيوش المغول منذ أكثر من ٣٠٠ عام. وهكذا الإنسان يستطيع أن يغرس فى الأرض زهراً .. ويستطيع أيضاً أن يغرس فيها ألغاماً .. للإنسان قدرة عجيبة على البناء وأيضاً رغبة عجيبة فى الهدم.

كان قادة المغول يغطون من كشمير كل معاركهم وهم واثقون أنهم فى حماية تامة لأن الجبال من حولهم يصعب اختراقها .. كما أن قواتهم تتربص على قمم الجبال تراقب كل حركة ومازالت قلاعهم هناك.

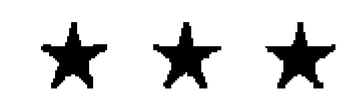
ومن هذه المعاقل أقامت حكومة كشمير حدائق يزورها السائحون كل عام.

من أهم مصادر الحياة فى كشمير .. السياحة .. والزراعة .. و ٨٠٪ من سكان كشمير يعتمدون على الزراعة .. وينتجون الحرير الطبيعى والأصواف والمشغولات . ويربون الملايين من « دودة القز » ولذلك تنتشر أشجار التوت فى كل مكان . ويسمونها « شاتوت » . وعندما يقترب الشتاء توضع شرنقات الدود فى أماكن دافئة فى البيوت حتى إذا جاء الصيف وعاد الدفء من جديد وظهرت الأوراق الخضراء على أغصان أشجار التوت عادت ديدان القز مرة أخرى إلى أماكنها لكى تتكاثر وتأتى بعطائها من الحرير . ونسبة المتعلمين فى كشمير تبلغ ٧٥٪ .. ومعظم سكان كشمير من المسلمين .. ويحفظ الأطفال القرآن وهم فى سن الثالثة .. ورغم أن كشمير من أهم البلدان السياحية فى العالم وتعيش على السياحة فإنهم يحرمون الخمور .. ويتمسكون بالإسلام تمسكاً شديداً .. وفى كل جزء من كشمير توجد أماكن لتحفيظ القرآن الكريم .

وكل إنسان فى كشمير يمتلك من ترابها جزءاً .. لأن لكل مواطن بيتاً.. ولا يسمح بتملك الأرض فى كشمير لغير أهلها..

ولا يستطيع أى مواطن هندى أن يمتلك أرضاً فى كشمير ؛ لأن القانون يحرم ذلك . وما أجمل أن تتناول العشاء على الطريقة الكشميرية تجلس على الأرض .. وحول مائدة صغيرة تقدم لك أنواع

مختلفة من الأرز واللحوم .. وبجوار المائدة إبريق « كشميرى » ملئ بالماء وآخر ملئ بالشاى .. وثالث ملئ بالقهوة .. ويرتل الأطفال الصغار القرآن الكريم والمدفأة تلقى بالدفء حولنا.



مشكلة خاصة

رحلة الهند تقترب من نهايتها .. اليوم بالتحديد هو ١٠ من فبراير ١٩٧٥ اليوم الأخير لنا فى كشمير .. وهو يوم له مكانة خاصة بالنسبة لى .. استسمحك أن أقف مع نفسى قليلا .. اليوم عيد ميلادى الثلاثين .. وكلما احتفلت بمرور عام من عمرى أشعر بألم شديد . ولا أتصور لماذا نطفىء الشموع فى أعياد ميلادنا رغم أنها تضىء حياتنا.. ربما لأن شيئاً عزيزا يختفى منا ولا يعود .

يا لمأساة الإنسان عندما تصبح سنوات العمر مثل الأوراق تعبث بها الأقدار وتسقط منها ما شاء لها أن تسقط وفى أى وقت تشاء . والشجرة لاتملك من أمر نفسها شيئا .. ولكن هذه هى الحياة ..

انطلقت بنا السيارة فى آخر جولة لنا فى كشمير إلى مدينة

«بهالجام» على بعد ٩٠ كيلو مترا من مدينة سير نجار عاصمة كشمير وكلما كانت السيارة تمضى كانت سلاسل جبال الهيملايا تقترب منا ولم يبق لنا إلا طريق صغير للغاية على حافة الجبل . والسيارة تسير ببطء شديد . المدينة خالية تماماً من كل شىء .. فهى من المدن السياحية المهمة .. فنادقها مغلقة . طرقاتها مسدودة بالثلوج ، كل شىء فيها توقف .. مدينة جميلة تنام فى أحضان قمة ضخمة عملاقة من قمم الهيملايا .. ولكن المدينة تنتظر روادها .. ولم أكن أتصور أن أكثر الأشجار احتمالاً للصقيع هى أشجار « الجزوارين » الذى ينتشر فى ريفنا المصرى .. أشجار الجزوارين احتفظت بخضرتها فوق جبال الهيملايا وأثبتت أنها أكثر الأشجار احتمالاً لنوبات الصقيع.

كانت الساعة تمضى .. وميعاد طائرة الرحيل يقترب .. ولابد أن نشاهد أكثر ما نستطيع .. كان لابد أن نشاهد أحد المعابد فوق قمة من قمم الجبال . معبد عتيق مضت عليه مئات السنين .. وأصعب الأشياء هو الوصول إليه ..

ساعة كاملة ونحن فى السيارة نتسلق الجبل على درب صغير. وفى نهاية الجبل قمة صغيرة جداً وقفت السيارة عليها . وكان لابد أن نتسلق على أقدامنا أكثر من مائتى متر حتى نصل إلى المعبد..

وبدأنا نتسلق الجبل .. ونظرت إلى أسفل ووجدت منحدراً عميقاً.. وفوجئت بأن الحذاء لا يثبت على الجليد وبدأ يتزحلق. صحت

في رفيق رحلتنا أريد أن أعود لا أستطيع التحرك.. ووقف حائراً وأنا أنظر حولي فلا أجد شيئاً .. وكنت قد تسلقت عشرة أمتار تقريباً .. ولم يكن بوسعي أن أستكمل الرحلة إلى المعبد كما وجدت أنه من الصعب أن أرجع حيث كنت ..

وكان منظر الجبل وأنا على قمته يشعرني بدوار شديد . وكل ما أخشاه أن أفقد توازني .. وأخيراً اكتشفت حلاً وحيداً ليس أمامي غيره، أن أرجع إلى مكان السيارة متسلقاً على بطني ... ونجحت المحاولة .. ورجعت إلى السيارة وقد تغير لون ملابسي وتحول القميص الأبيض إلى اللون الأسود بعد أن حمل كميات كبيرة من الطين . وتغير لون وجهي أيضاً فلم تعد فيه نقطة دم واحدة..

وهكذا ودعتني كشمير في نهاية الرحلة بدعابة لا تنسى . ولعلها كانت تريد أن تترك في أعماقي شيئاً يذكرني بها دائماً .. ولقد نجحت في ذلك بكل تأكيد .

وبينما كانت الشمس تستعد للرحيل في يوم عيد ميلادي الثلاثين كنت أقف في مطار كشمير أنتظر الطائرة عائداً إلى القاهرة بكل أشواقي لها .. ومع غروب الشمس توارى يوم من عمري .. يوم لن أنساه .. قد أعود إلى كشمير ذات يوم مرة أخرى .. وقد أرى فيها ما رأيت .. ولكن الشيء المؤكد أن ذلك لن يكون في الثلاثين من عمري.

★ ★ ★

فهرست

الصفحة

مؤلفات الشاعر
فاروق جويدة

أوراق من حديقة أكتوبر «ديوان شعر» ١٩٧٤ .

حبيبتي لا ترحلي «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٥ .

أموال مصر كيف ضاعت «اقتصاد». الطبعة الأولى-١٩٧٦.

ويبقى الحب «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٧ .

وللأشواق عودة «ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٧٨ .

فى عينيك عنوانى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

الوزير العاشق «مسرحية شعرية» الطبعة الأولى ١٩٨١ .

بلاد السحر والخيال «أدب رحلات» الطبعة الأولى١٩٨١.

دائما أنت بقلبى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨١ .

لأنى أحبك «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨٢ .

شىء سيبقى بيننا «ديوان شعر» ١٩٨٣ .

طاوعنى قلبى فى النسيان «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨٦.

لن أبيع العمر « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٨٩ .

زمان القهر علمنى « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٠ .

كانت لنا أوطان « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩١ .

آخر ليالى الحلم « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٣ .

قالت « خواطر نثرية » الطبعة الأولى ١٩٩٠ .

شباب فى الزمن الخطأ الطبعة الأولى ١٩٩٢ .

دماء على ستار الكعبة «مسرحية شعرية» الطبعة الأولى ١٩٨٧ .

الخديوى « مسرحية شعرية » الطبعة الأولى ١٩٩٤ .

فاروق جويدة « المجموعة الكاملة ».

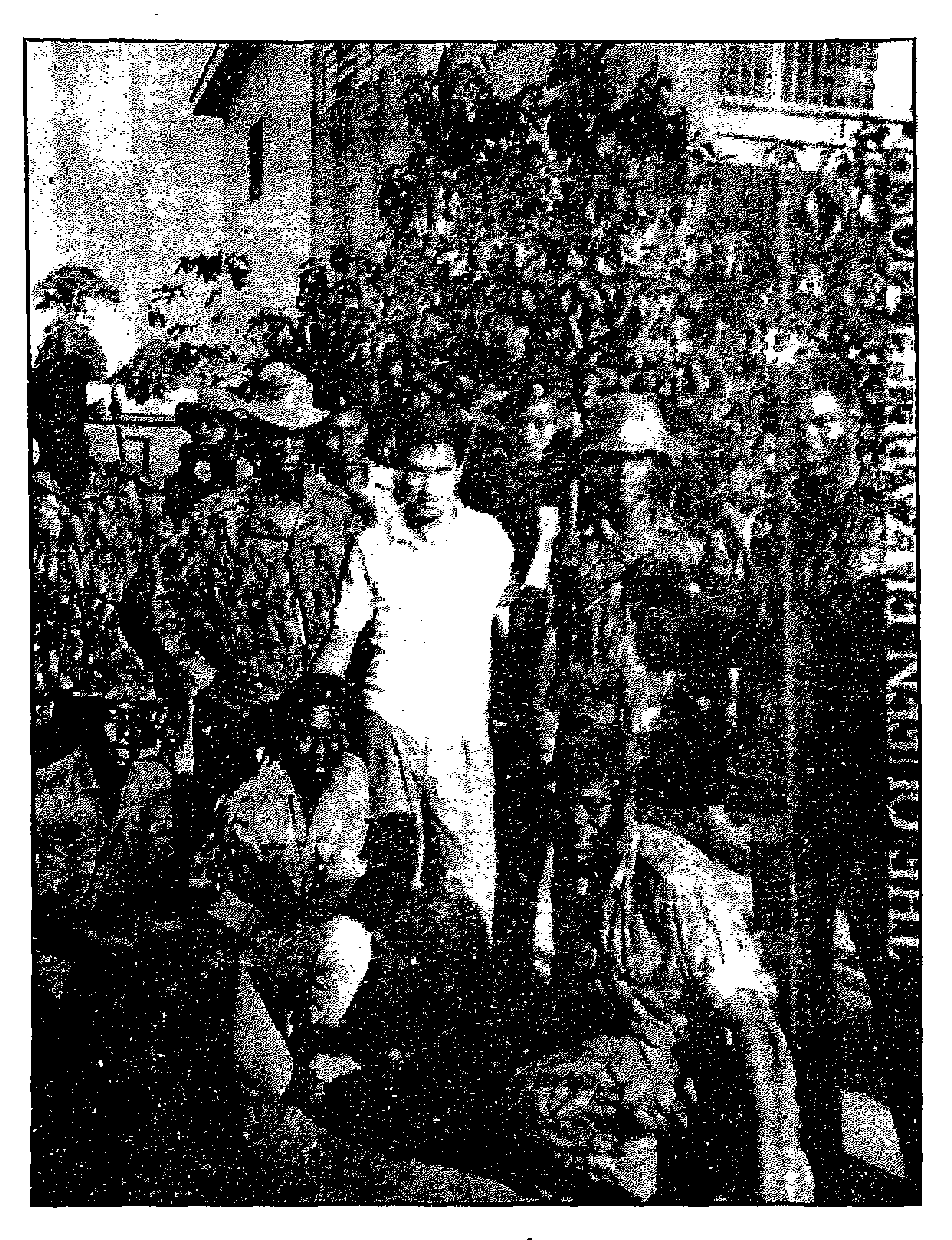
ألف وجه للقمر « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٦

عمر من ورق « خواطر نثرية » الطبعة الأولى ١٩٩٧

قضايا ساخنة جداً الطبعة الأولى ١٩٩٧

ليس للحب أوان - الطبعة الأولى ١٩٩٧.

جولة بالصور



فاروق جويدة فى مدينة « أوماهيا » فى نيجيريا فى شهر مايو
من عام ١٩٦٩ مع القوات النيجيرية .. إنها تجربة حرب لا تنسى ..



مع الميجور « واى كورى » قائد القوات النيجيرية التى استولت على مدينة « أوماهيا » عاصمة الاقليم المنشق « بيافرا » ..





هكذا يرحل الناس تحت سطوة الحروب . وهكذا تكون الحياة
عندما يرتفع صوت الرصاص على صوت العقل .. إنها مأساة الحرب الأهلية فى نيجيريا ..



ما أرخص الحياة فى البحر .. فى لحظة ممكن أن ينتهى كل شىء.. وفى الصورة محاولة للتدريب على ارتداء ملابس الانقاذ .. وبعد ساعات كانت التجربة حقيقية ولم يحاول أحد أن يلتقط صورة لنا والسفينة تغرق .. كل واحد هرب بجسده..



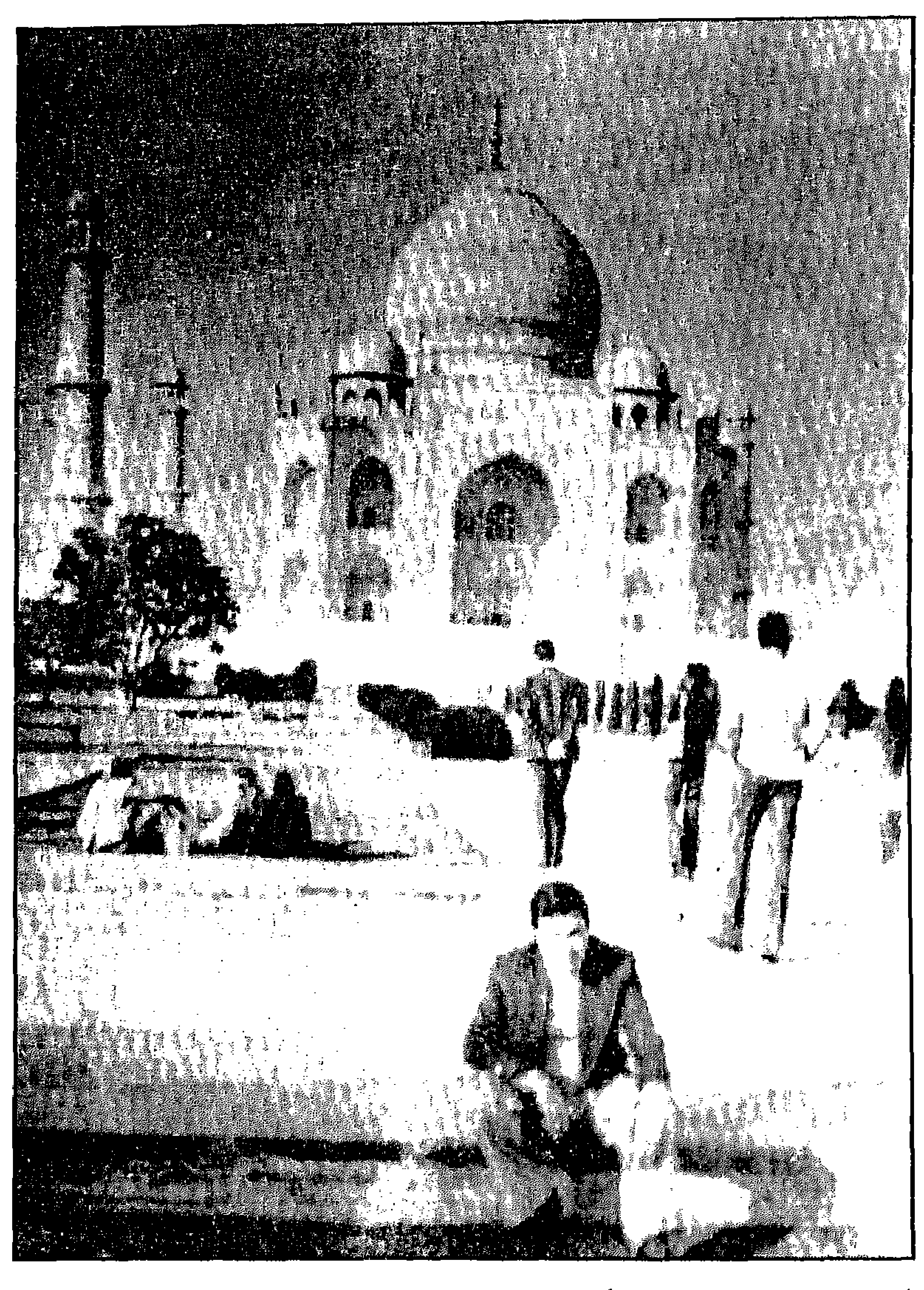
مع يعقوبو جوون » رئيس نيجيريا السابق فى بيته .. كان شابا متحمسا ولم يصدق حينما وعد شعبه بعودة الحكم للمدنيين بعد انتهاء الحرب حتى خلعهم الجيش فى انقلاب أطاح به.



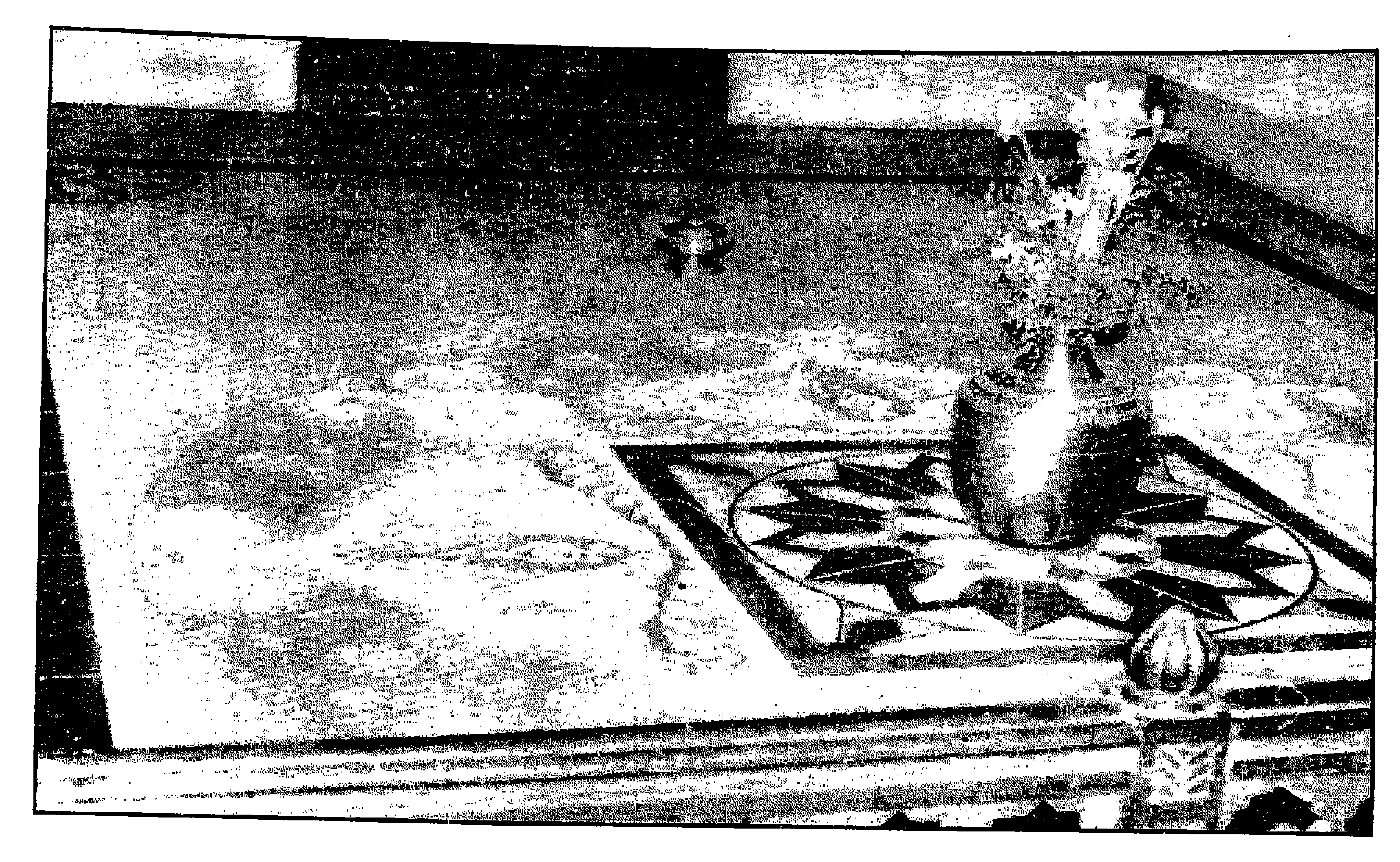
ملابس رجال الدين فى موريتانيا .. والصورة لأقدم مؤرخى موريتانيا ..



فى موريتانيا تحتل « الطرق الصوفية » مكانة عظيمة فى قلوب الناس. هكذا يجلس شيخ الطريقة وحوله مريدوه وأحبابه .. وفى نهاية الرحلة يحمل الهدايا والنفحات .. كما يحدث فى مصر تماما



أمام تاج محل فى الهند .. أسطورة حب .. وقصة عشق عاشت بين جدران هذا البناء الشامخ أحد عجائب الدنيا السبع ..



فى هذا المكان مات طاغور شاعر الهند العظيم فى عام ١٩٤١



واحد من أعرق قصور الهند .. متحف كبير تقدر قيمة التحف فيه بمئات الملايين من الجنيهات ..



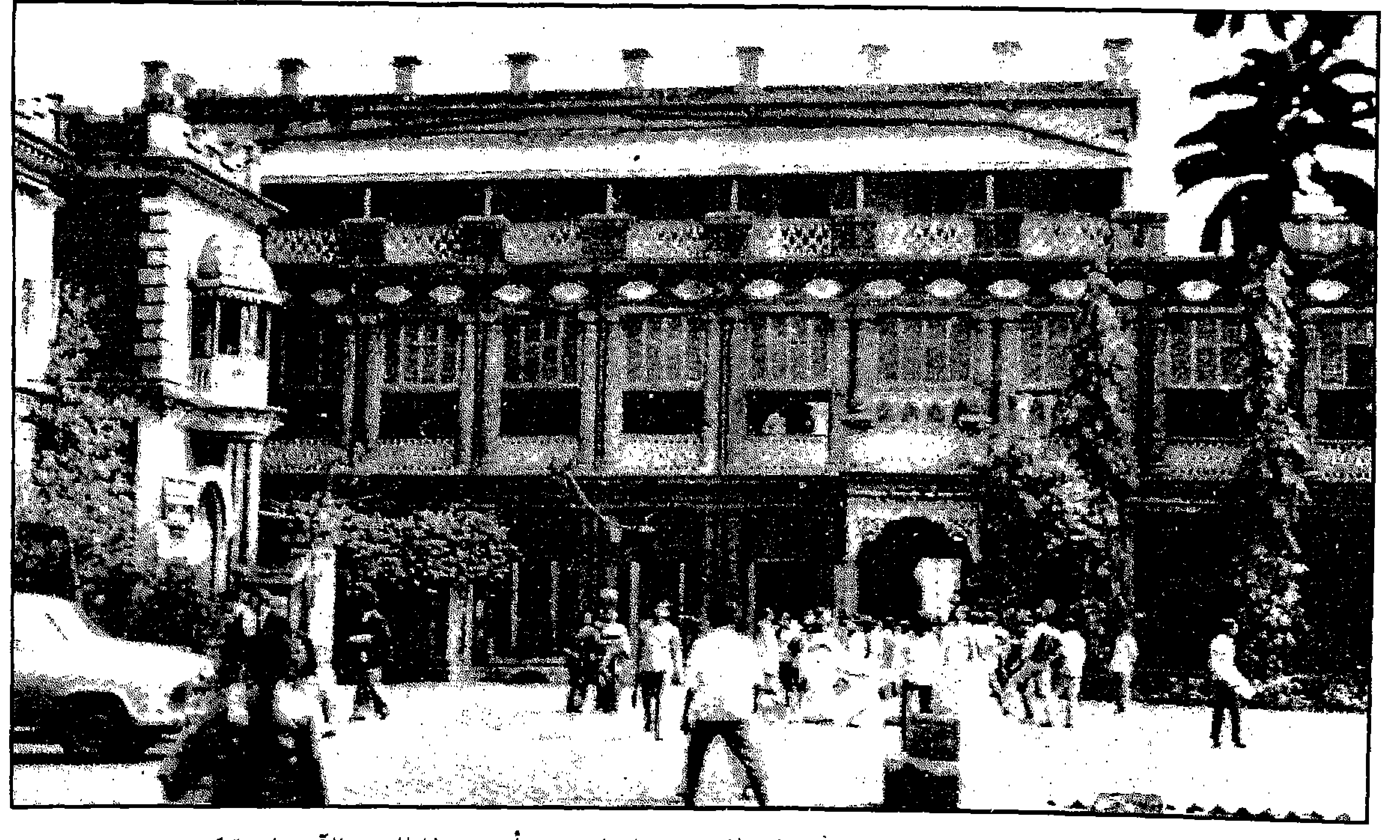
فوق قمة من قمم جبال الهيمالايا.. لم أستطع أن أواصل السير فوقا الجليد لأزور
أحد المعابد القديمة.. وهكذا رجعت متسلقا على الأيدى والأقدام ..



أمام بيت طاغور .. وفى حجرة فى الطابق الأول كتب طاغور أجمل أشعاره وأعذبها
.. وكان رجلا غنيا لديه أكثر من قصر .. وهذا القصر فى جامعته « دار السلام »
التى بناها فى الهند .

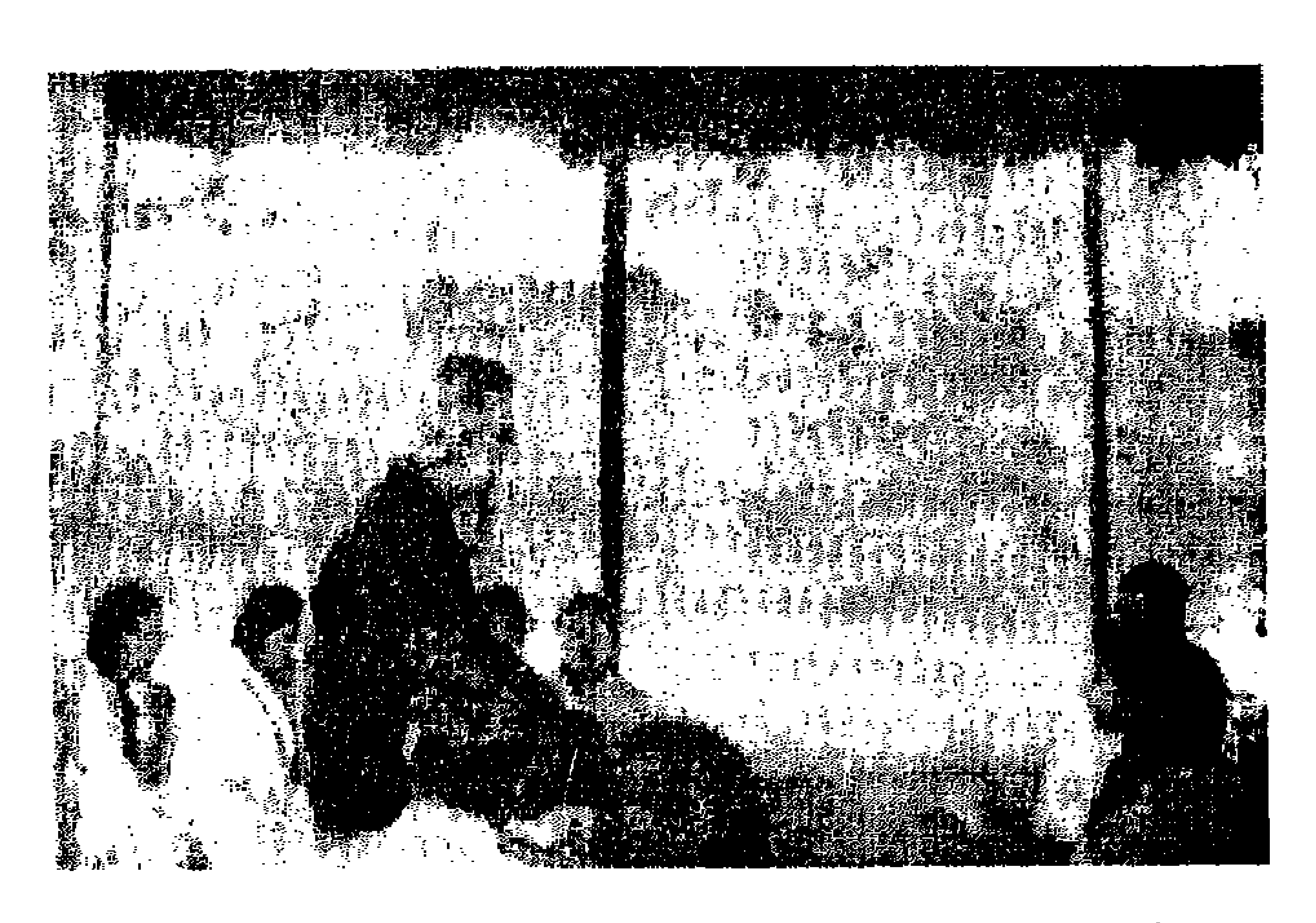


ولد صغير .. إنهم يتبركون فى الهند بهذه النقوش على وجوه أطفالهم وملابسهم .



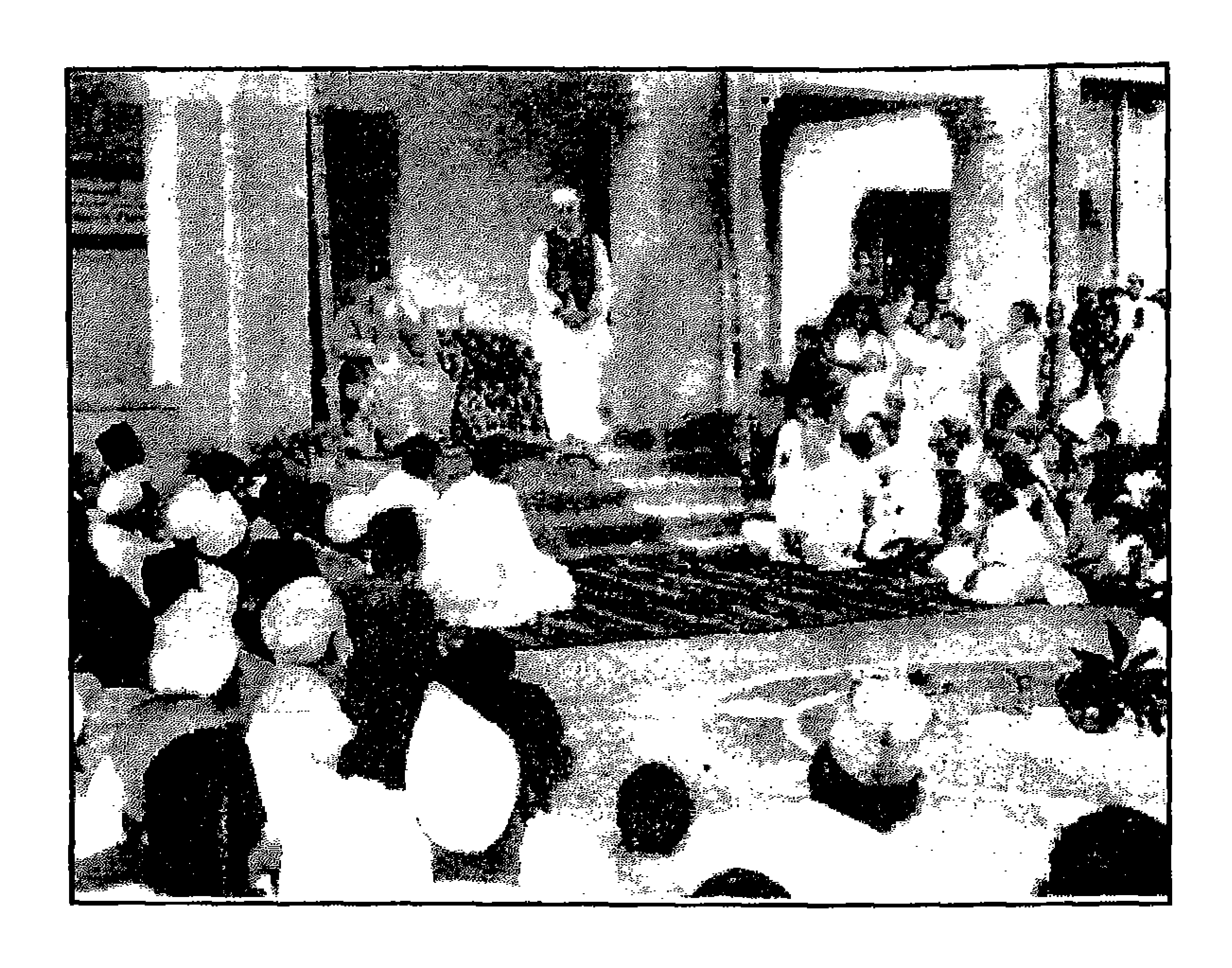
بيت آخر « لطاغور » فى مدينة « كلاكتا » هنا ولد طاغور وهنا مات .. وأصبح هذا البيت الآن جامعة كبيرة ..





الأطفال الصغار فى جامعة طاغور « دار السلام » وبينهم
يقف طاغور ..

وفى الصورة الثانية يلقى إحدى محاضراته ..



«نهرو» الزعيم الهندى الكبير يحاضر في جامعة طاغور « دار السلام» وبجواره جلس طاغور .. الجامعة كلها تحت الأشجار وليس فيها مدرج واحد ..



« طاغور » يلقى أشعاره .. و « غاندى » يسمع ..
عملاقان جمعهما زمان واحد .. وحلم واحد وتجربة نضالية واحدة ..

وفى الصورة الأخرى لحظة تأمل بين طاغور .. ونهرو ..





بيت من الطين بناه طاغور .. كان يترك قصره الكبير ليعيش فى هذا البيت المتواضع .. عاش للناس .. ومات معهم ..

رقم الإيداع ٢٧٣٨
الترقيم الدولى × - ٤٠ - ٧٣١٤ - ٩٧٧



هذا الكتاب

هذا الكتاب تجربة سفر غريبة..

فليس هناك أصعب على الإنسان من أن يجد نفسه بين جدران سفينة تراودها كل ليلة أحلام الغرق وليس هناك أقسى على الإنسان من أن يجد نفسه فى تجربة حرب مريرة فى سيارة عسكرية تتهادى فوق أشلاء الموتى والضحايا وتلك مأساة الحروب ..

فى جانب آخر من الصورة يبدو عبير شعر طاغور فى ربوع الهند ويبدو « تاج محل » أسطورة عشق لا تموت.

إنها تجربة سفر فريدة..

هانى أحمد غريب

الثمن ٥٠٠ قرشاً